جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
بالمنصورة

محاضرات
في
شعر الحرب والفروسية في عصر بني أمية

الدكتور
طلعت صبح السيد
مدرس الأدب والنقد الأدبي بالكلية

١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م

" بسم الله الرحمن الرحيم "

(المقدمـــــة)

" الحمد لله ، والصلاة والسلام على رســول اللـــــــه "

وبعـــد :

فليس ينكر أحد أن شعر الحرب والفروسية من أولى الموضوعات الشعرية التى تتصل بالعصر الأموى اتصالا مباشرا فهو نتاج طبيعى للعصر وصراعاتـــه وقد عنى بتسجيل الصراعات الحزبية ، ونقل لنا صورة لما كان فى العصر مـــن أمجاد وبطولات قد لانجد لها أثرا فى كتب التاريخ والسير .

وكان نهجى فى دراسة هذا الشعر يقوم على الاهتمام باللون الحزبـــى ذلك لأن العصر الأموى كان عصر أحزاب سياسية حقيقية ، لكل منها مذهبـــه وآراؤه ونظرياته فى الحكم ، ولكل منها وسائله فى الدعاية لأفكاره وتحقيقهـــا والتطور بها من نطاق الرأى والفكر إلى ميدان القتال والحرب .

ثم إن الحديث على هذا اللون من الشعر يدفع بالإنسان لأن يستعـــين بالأحداث السياسية ، ليأخذ منها مايعينه على التوضيح ، تسديداً لبحثـــه ودراسته ، لأن شعراء هذا الشعر فى العصر الأموى لكل منهم نزعته الخاصـــة لحزب أو فريق ، ولكل منهم كذلك دعوة فى شعره لهذا الحزب أو ذاك مدحـــاً وهجـــاءً ...

وماتوفيقى إلا باللـــــــه !!!

د . طلعت صبح السيد

المنصورة فى ربيع الأول ١٤٠٥ هـ

(البــاب الأول)

" العصر الأموى بين الحــرب والسياسة "

الفصل الأول : الأحزاب السياسية فى العصر الأموى :

ما أن انقضى عهد عمر بن الخطاب حتى علت على الساحة الإسلاميــة أسباب جعلت الهوة تتسع بين المسلمين ، وعصفت فرقتهم بالوحدة التى نعمــوا بها فى العهد الأول للإسلام ونشأت من ثم الأحزاب السياسية ، وأخـــذت تستكمل أسباب قوتها ومعالم شخصيتهــا .

ولا شك أن تاريخ الدولة الأموية يمثل صورة حقيقية لهذا الصراع الحزبــى فقد اختلفت فى هذه الدولة الأهواء والأغراض ، وأصبحت ميدانا تتصارع فيــه الأحزاب ، وكانوا معاول هدم فى بناء الدولة منذ فجر حياتها وحتى أفـــول شمســـهـــا .

فالخوارج يكفرون الدولة الأموية ، والشيعة يخرجون عليها تحت شعــار الدعوة لآل البيت ، ويقومون من أجل ذلك بالحروب والثورات التى هزت أركــان الدولة وأضعفت كيانها ، وكانت من أهم العوامل فى القضاء عليها . والزبيريون يقفون من الدولة موقف العداء السافر ويسيطرون على معظم ولاياتها فترة مـــن الزمان .

(١) الحـــزب الأمـــوى

بعد مقتل عثمان بن عفان بويع على بن أبى طالب بالخلافة ، ولم تكــن

الخلافة آنذاك مركزا يحسد عليه صاحبه لما كان يحيط به من أهوال ومتاعب وهذا هو السبب فى رفض رجال الشورى لها ، حتى لايكون هناك مجال لسوء الظن بهم .

ولم يكد على يتولى الخلافة حتى واجهته العقبات وأحاطت به المتاعب فقد طلب إليه جماعة من أولى الأمر — وعلى رأسهم معاوية بن أبى سفيان — أن يحاكم هؤلاء الثوار الذين قاموا بقتل الخليفة عثمان بن عفان (١) .

وتمادى معاوية فى دعواه ، فأخذ يثير الناس ، ورفض أن يبايع عليا وتمكن أن يحرك المشاعر ويثير الخواطر ، وكان قد حشد لذلك كل مالديه من أساليب الدهاء ، وألقى فى أذهان الناس أنه انما يطالب بثأر عثمان من قاتليه وأن عليا قد اشترك فى هذا الجُرْم وأوغل فيه .

فى هذا الجو بدأ على يوجه معظم اهتمامه إلى معاوية فهو العدو الألد الذى لايزال يحكم بلاد الشام ويتجاهل أمر الخليفة بعزله ، ولايقر أوامر الخليفة ولايعترف بها ، وبدأ الصراع فى موقعة الجمل (٣٦ هـ — ٦٥٦ م) وقتل فيها طلحة والزبير وتم النصر لعلى .

وسرعان ماتجدد الصراع بين على ومعاوية فى موقعة صفين (٣٧ هـ — ٦٥٧ م) ، وكاد النصر يتحقق لعلى لولا الحيلة التى لجأ إليها عمرو بن العاص قائد جند معاوية فقد رفع جنده المصاحف ، وكان التحكيم وخلع على وتثبيت معاوية (٢) .

---

(١) أنظر الدولة الأموية فى الشرق د . الطيب النجار : ١٣ ومابعدها . ط ٣ .

(٢) راجع تاريخ الطبرى جـ ٥ والكامل لابن الأثير جـ ٣ .

وقد استطاع معاوية أن يستأثر بالخلافة ويقرها فى البيت الأموى وبخاصة بعد أن اضطر الحسن بن على إلى التنازل عنها وايقانه أنه لا طاقة له بنزال معاوية وجنده ، فصالحه على أن يكون الأمر بعد وفاة معاوية شورى بين المسلمين يولون عليهم من أحبوا ، وقد وافق معاوية على ذلك واجتمعت الكلمة عليه (١) .

وهكذا قامت الدولة الأموية (٤١ هـ — ٦٦١ م) ، وبويع معاوية فى الكوفة سنة ٤١ هـ على مشهد من الحسن والحسين (٢) . لكنه لم يلبث إلا قليلا حتى ابتدع نظاما جديدا فى الخلافة ، فأخرجها من دائرة الشورى والانتخاب إلى التعيين والوراثة وذلك بإعلانه البيعة لابنه يزيد ، وشرع يوطد الملك له ويعهد إليه بولاية العهد فى حياته .

طابع سياستهم :

اتخذ معاوية من مدينة دمشق مركزا للخلافة الأموية وحاط نفسه بأبهة الملوك وجلالهم ، وعلى الرغم من ابقائه على النظام الإدارى القديم إلا أنه أول من اصطنع الموالى والنصارى فى المناصب (٣) .

وأخذ بنو أمية ودعاتهم يحملون الناس على الطاعة لهم وعلى نصرتهم ومقاتلة من يتمرد على سلطانهم .. وكانت حجتهم فى ذلك أنهم خلفاء الله ورسوله .

---

(١) تاريخ اليعقوبى : ٢/٥٤ . والبداية والنهاية لابن كثير ٨/١٦ .
(٢) مروج الذهب : ٢/٣٦ . المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦ هـ .
(٣) انظر تاريخ الدولة العربية د . عبد العزيز سالم : ٣٤٦ . مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر .

وقد جهر بهذا زياد والى معاوية فى خطبته البتراء بالبصرة فقال :[١]

" أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم سادة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفئ الله الذى خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا " .

وكان على الدولة الأموية — لتوطيد دعائم ملكها — أن تستميل الناس إليها ، فتسلح بنوها بالسيف وباللسان وبالقلم وبالعطاء ، وتسلحوا فيما تسلحوا به بسياسة التفريق والتمزيق وبعثوا العصبية القبلية والعصبية الجنسية أو الشعوبية[٢]

ولعل أظهر ما يمثل دهاء معاوية وسعة عقله أنه عرف كيف يتخذ من العصبيه حصنا منيعا يحصن به ملكه وملك أولاده من بعده ، فهل كان الصراع بين الزبيرية (أتباع عبد الله بن الزبير) والأموية إلا صراع المضرية واليمانية[٣] .

وجدير بالذكر أن هذه العصبيه كانت نذيرا بخطر لم يلبث أن استشرى فى الدولة الأموية ، فهدم أركانها ، وعجل بسقوطها ، فالأمويون — وإن استنصروا بالعصبية على خصومهم — لم يلبثوا إلا قليلا حتى استنصر بها بعضهم على بعض .. وطبيعى لا يسلم بنو أمية بمسلكهم هذا من إثارة وإغضاب ، هذا إلى ما تجره تلك العصبية من شرور ومخاطر . وقد تحقق ذلك ، فسرعان ما صارت العصبية مرضا فى المجتمع ، ونجمت عنها فتن وثورات آذنت بنهاية الدولة وظهور الدعوة لبنى العباس .

---

(١) البيان والتبيين : ٢/٦٤ . نشر مكتبة الخانجى .

(٢) انظر مروج الذهب : ٢/٢١ .

(٣) المقارنة بين الشعر الأموى والعباسى فى العصر الأول د . عزيز فهمى ٤٤ . دار المعارف .

وقد أنذر نصر بن سيار والي خراسان هشام بن عبد الملك بقوله[1] :

أرى خَلَلَ الرماد وميضَ نـار ∴ ويوشك أن يكون لها ضـرامُ
فإن النار بالعُودَيْنِ تُذْكـى ∴ وإن الحرب أولها الكـلام
فأن لم تطفئوها تَجْنِ حربـا ∴ مُشَمَّرَةً يشيب لها الغـلام
أقول من التعجب ليت شعرى ∴ أأيقاظ أمية أم نيـام
فان يك قومنا أضحوا نيامـا ∴ فقل قوموا فقد حان القيـام
ففِرّى عن رحالك ثم قولـى ∴ على الإسلام والعرب السلام

وقد أتيح لبني العباس أن يبثوا دعاتهم في هذا المجتمع الممزق الساخط ، فأخذوا يشهرون ببني أمية ، واستغلوا حنق بعض القبائل المتزايد على بني أمية .. وفي وسط هذا المجتمع الذى تصطرع فيه أمواج الفتن ويموج بالخلاف والانقسام ، لم تكن إلا جولة أو جولات حتى تهدم صرح بني أمية وقام صرح بني العباس .

(٢) حزب الخوارج

عرفت الخوارج بألقاب عديدة [2] ، وأشهر هذه الألقاب هي " الحرورية " و " المحكّمة " و " المارقة " و " الشراة " .

وأشهر اسم عرف به هؤلاء الناس هو الخوارج ، وقد صار علما مميزا لهم عن غيرهم من الفرق الإسلامية ، ولعل شهرته على الأسماء الأخرى جاءت من اتفاق الجميع على استعماله وإشاعته ، ثم إن الخوارج أنفسهم تمسكوا بهذا

---

(١) مروج الذهب : ٢/٢٥ . والعقد الفريد : ٥/٢٤٠ .

(٢) الخوارج في العصر الأموي د . نايف معروف : ١٨٧ ومابعدها .

الاسم واعتزوا به ، لأنه يمثل فى نظرهم الخروج فى سبيل الله .

وقبل موقعة صفين كان الخوارج من أنصار على وشيعته المقربين ، وكان لهم فى الكفاح مع على جهاد مبرور وبلاء مشكور ، ولكن بعد أن استقر الرأى على قبول التحكيم نفروا من على وخرجوا عليه وتغير رأيهم فيه ، فسموا منذ ذلك الوقت بالخوارج ، لخروجهم كما قال الشهرستانى (1) على الإمام الحق الذى اتفقت عليه الجماعة .

نظريتهم :

وتقوم نظريتهم فى الخلافة على أساس أن الخليفة يجب أن يكون باختيار حرّ من المسلمين ، وإذا تم اختيار الخليفة صار رئيس المسلمين ، ويجب أن يخضع خضوعا تاما لما أمر الله وإلا وجب عزله .

ولاشك أن معاوية كان أبغض إلى الخوارج من على ، لما كانوا يعتقدونه فيه من العبث بأموال المسلمين ، وفوق ذلك فهو لم يصل إلى الخلافة عن إجماع من المسلمين ، وإنما وصل إليها على جسر من المكر والدهاء .

وقد حكم الخوارج بتكفير على ومعاوية ومن ناصرهما بعد التحكيم ، لأنهم حكموا بغير ما فى كتاب الله ، إذ عدلوا عن تحكيم الله إلى تحكيم الناس وأوجبوا الخروج عليهم وقتالهم ، ولذلك أشادوا بعبد الرحمن بن ملجم قاتل على بن أبى طالب ، وقال فيه قائلهم : (2)

يا ضربةً من منيبٍ ما أراد بها ∴ إلا ليبلغَ من ذى العرش رضوانا

(1) الملل والنحل ص ١٠٥ مطبعة مخيمر ١٩٥٦م . وأدب الخوارج د. سهير القلماوى ص ٥ لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(2) الملل والنحل ١/١٥٩ .

إني لأذكره يوماً فأحسبُـهُ ∴ أوفى البريةِ عند الله ميزانـــا

ولعل خير مايصور عقيدتهم ماقاله واحد منهم وهو أبوحمزه الخارجـــي في وصف أصحابه . يقول : " شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غضية عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاح سهر ، ينظر الله إليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآيـة من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كـأن زفير جهنم بين أذنية . موصول كلالهم بكلالهم : كلال الليل بكلال النهـار قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم ، وأنوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك في جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد فوقت ، والرماح قد أشرعت ، والسيوف قـد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعـد الله ، ومضى الشاب منهم قدما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطت عليه طير السمـاء فكم من عين في منقار طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف اللـه وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود للـه "(١) .

فـــرق الخـــوارج :

ظلت الخوارج على رأي واحد من لدن فارقوا عليا إلى أن كان من أمرهم ماكان مع ابن الزبير وتفرقهم عنه .. فبعد أن كانوا كتلة واحدة يجتمعون علـى رأي واحد ، شجر الخلاف بينهم ، وأصبحوا فرقا يتبرأ بعضها من البعض الآخر(٢)

---

(١) البيان والتبيين : ٢/١٢٥ .
(٢) انظر الكامل للمبرد : ٣/٨٩١ .

ومن هذه الفرق الأزارقة والصفرية والنجدية والإباضية والبيهسية .

هذا ولم يقف انقسام الخوارج عند هذا الحد ، بل جاوز انقسامهم الحدود الاجتهادية المألوفة .. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن قضية الاجتهاد عندهم لم تكن قد توضحت معالمها أو حددت شروط ممارستها

علاقة الخوارج ببني أميـــة :

أما ماكان من الخوارج في تحركاتهم ضد الدولة الأموية ، وما كان من الأمويين في مقاومتهم ، فلاشك أن الخوارج لم يكونوا راضين عن المعاهدة التي أبرمت بين الحسن ومعاوية ، وتمنوا القضاء على هذه الدولة ، إلا أن الاستقرار الذي نعمت به الدولة الأموية بعد تنازل الحسن عن الخلافه يعد العامل الأول في الحد من خطورة الخوارج وتقليص نفوذهم ، كذلك لانغفل ماكان لولاة العراق من دور حيال الخوارج ، فقد استطاعوا أن يحولوا دون تصاعد أمرهم طوال عهد معاويـــة (١) .

ومن ينظر في تاريخ الخوارج يجد أنهم لم يكفوا لحظة واحدة عن محاولاتهم إسقاط حكم بني أمية ، إلا أنهم كانوا يحاربون خصومهم في جبهات مختلفة ، ولو أتيح لهذه الفرقة أن تعمل تحت إمرة واحدة ، ووفق خطة متكاملة لتجنبت الكثير من الهزائم التي منيت بها ، ولاستطاعت بالتالي تحقيق الكثير من التطلعات السياسية التي كانت تتطلع إليهـــا .

---

(١) يلاحظ البداية والنهاية : ١٤/٨ . القاهرة ١٣٤٨ هـ .

(٣) حـــزب الشيعـــــة

لم تظهر الشيعة بالمعنى الحزبى إلا فى عهد عثمان بن عفان حينمـــا قام عبد الله بن سبأ اليمنى اليهودى الأصل بإظهار التعصب لآل البيـــت ووضع أسس مذهب التشيع ، والانتقال فى البلاد الإسلامية يحرض على عثمان ومعاوية ويظهر مساوئ بنى أميـــة .

ولما قتل عثمان بن عفان ، عرض الثوار الخلافة على علىّ بن أبى طالب فأبى ، ثم استعانوا عليه بالأنصار والمهاجرين فقبل ، وأصبح خليفـــة المسلمين ببيعة اشترك فيها من كانوا بالمدينة من أهل الكوفة والبصرة ومصر ومن كانوا بها من المهاجرين والأنصار .

وقد رفض بيعة على كثير من أنصار عثمان وفى مقدمتهم السيدة عائشـــة رضى الله عنها ، ثم انضم إليها طلحة والزبير ، وما لبثوا إلا قليلا حـــتى تجمعوا وقصدوا قتال على وصحبته فى البصرة (١) .

وقد التقى الفريقان فى موقعة الجمل وقتل طلحة والزبير ، وبعد المعركة ارتحل على إلى الكوفة فبايعته ، وبدأت الرسل تسفر بينه وبين معاوية فلـــم يقدر لها نجاح ، ثم كانت موقعة صفين والتحكيم (٢) .

وقد انتقل الإمام على إلى العراق ، واختار الكوفة مركزا له وينبوعـــا لدعوته وعاصمة لخلافته ، وصارت العراق والكوفة بخاصة موئل الشيعة ومنبع التشيع ، ومصدر الثورات على بنى أميـــة .

---

(١) انظر الطبرى : ١٦٨/٥ ومابعدها . المطبعة الحسينية بمصر .
(٢) انظر الدولة الأموية د . الطيب النجار : ١٩ ومابعدها .

وقد شق المحكّمة [١] عصا الطاعة على علىّ ، ولم يبق إذن حوله إلا أهل الكوفة الذين أصبحوا كلهم حزبه فى حرب معاوية وحزبه ، ثم كان من تثاقلهم عن نصرة على حتى قتل وليس له شيعة فى العراق كشيعة معاوية فى الشام .

وبعد مقتل على أصبح التشيع مقصورا على أتباعه مع تفاوت فيما بينهم وقد ندم هؤلاء على تفريطهم فى مقتل على ، فأخذوا يغالون فى حبه وتعظيمه واكباره عزاء لما قدموا له من الإساءة في حياته ، وعلى هذا النحو كان عداؤهم لبنى أمية ، فقد ظلوا طوال العصر يستجيبون لكل من يقودهم للثورة عليهم [٢] .

ولما قتل الإمام على راجت الدعوة لابنه الحسن وبايعه أهل الكوفة وأخذ يستعد لقتال معاوية ، لكن معاوية — وكان أشد ميلا إلى الحرب — قد سار إليه ، فوجد الحسن أنه لا طاقة له بنزال معاوية وبخاصة بعد خذلان قومه له فتصالح معه على أن يتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية على أن يكون الأمر شورى بعد معاوية ، وغادر الحسن الكوفة إلى المدينة وعاش بها حتى مات سنة ٤٨ هـ ٦٦٨ م [٣] .

وأخذ الأمويون يطيحون بأهل الشيعة حتى ضعف أمرهم وظلوا أيام معاوية يقصرون تشيعهم على النظر والعقيدة لا على الحروب والثورات ، إلى أن قتل الحسين بن على وبعض أصحابه ، فأخذ الشيعة يتحمسون لنصرة مذهبهم ، وأعلنوا التمرد فى عهد عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ هـ فى حركة

---

(١) انظر فجر الإسلام ، أحمد أمين : ٢٦٦ ومابعدها . النهضة المصرية ط ١٢ ١٩٧٨ .

(٢) انظر الدولة الأموية فى الشرق د . الطيب النجار ص ٧٧ ومابعدها .

(٣) الكامل لابن الأثير : ١٧٥/٣ . والبداية والنهاية ١٤/٨ .

سميت حركة التوابين ، فلما كان عهد هشام بن عبد الملك خرج زيد بن على زين العابدين بن الحسين .. إلا أن كل هذه المحاولات باءت بالفشل وبقيت الشيعة مذهب عقائدى إلى أن قامت دولة بنى العباس [1] .

* * * * *

وتقوم عقائدهم فى أصولها على فكرة الإمامة والإمام ، وهم يجمعون بفرقهم المختلفة على مشايعة على وإمامته ، ويرى جمهور الشيعة نفس الرأى فى أولاد على ، وقد وجدت هذه العقيدة رواجا شديدا وذيوعا واسعا بين كل من تشيع للإمام على [2] .

ولا يتسع المقام لإحصاء المذاهب والفرق الشيعية وتتبعها ، وبيان معتقدات كل منها وما بينها من خلاف ، فكل ما يعنينا هو ابراز الشيعة كحزب وبيان شأنها السياسى ، وما كان لها من نضال مع الفرق الأخرى امتد أثره إلى الشعر السياسى .

وقد قرن أدب الشيعة بحب آل البيت ، وعللوا لهذا الحب بأنه تابع لحب الله تعالى ، ولذلك بكوا على أئمتهم بكاء حارا ، وحملوا على خصومهم واتهموهم بالجور والاغتصاب والحيدة عن الدين .

وقد مزجوا السياسة بالدين ، فشعرهم يجمع بين الحرب وفكرة السياسة التى دعتهم إلى الحرب ، حتى خرجت أشعارهم صدى لحروبهم مع

---

(١) انظر أعيان الشيعة ، السيد محسن العاملى ج١ ص ١٦ — ١٩ مطبعة ابن زيدون دمشق ١٣٥٤ هـ .

(٢) انظر توضيح ذلك : الفرق الإسلامية د . نعمان القاضى : ١٤٢ وما بعدها .

الأمويين ، واقرأ أشعار الكميت بن زيد الأسدى فستجدها تصور لك حروب الشيعه وبطولة أبطالها وشجاعتهم ، ثم تجد الدموع المسكوبة حزنا على مقتل أئمتهم فى ظلم وعدوان .

(٤) الزبيريون

ينسب هذا الحزب إلى زعيمه عبد الله بن الزبير بن العوام الصحابى ابن الصحابى . وقد كان ابن الزبير رجلا طموحا يحب المجد والسلطان ، وكانت الخلافة املا من اماله ولكنه لم يفكر فيها تفكيرا فعليا إلا بعد أن أعلن معاوية البيعة دينه يزيد فأخذ يدعو لنفسه بمكة سنة (٦١ هـ — ٦٨٠ م) وبايعه الناس فيها بالخلافة .

ومنذ ذلك الوقت ولد حزب جديد من أحزاب المعارضة التى قامت فى وجه الأمويين وهو حزب الزبيريين .. وكان هذا الحزب شديد الخطورة على الدولة الأموية ، ولو أن زعيمه قد أحسن استغلال الفرص التى أتيحت له لاقتلع هذه الدولة من أساسها ولكنه كانت تواتيه الفرص فيضيعها الأمر الذى أدى إلى أفول نجمه بعد زمن غير طويل (١) .

وقد اعتمد الحزب الزبيرى فى الدعوة إلى عبد الله بن الزبير على أمور منها أن الخلافة حق لقريش وحدها كما أعلن ذلك أبو بكر

(١) انظر الكامل لابن الأثير : ٤ / ٣٤٨ ومابعدها .

يوم السقيفة ، وعبد الله أكفأ من يتولاها بعد أن مات معاوية ، بل إنه كان يرى نفسه أكفأ من معاوية ، يضاف إلى ذلك أن عبد الله يمت بصلة إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، وإلى ذلك فهو ابن أسماء بنت أبي بكر ، وكان في المدافعين عن عثمان بن عفان وقت الحصار .. وهو رجل اشتهر بالتقوى والصلاح ، على حين اشتهر منافسوه من بني أمية بالخلاعة والمجون مما أسخط جمهور المسلمين عليهم (١) .

وقد جهر عبد الله لنفسه بالدعوة بعد مقتل الحسين ، فأخذ أهل المدينة يثورون على الأمويين ، وطردوا مروان بن الحكم وسائر بني أمية سنة ٦٣ هـ ، فأرسل يزيد جيشا بقيادة مسلم بن عقبة إلى المدينة ، وكان قتال شديد انتصر فيه مسلم ، وقتل عددا كبيرا من خصومه ، وأجبر الناس على البيعة ليزيد (٢) على أنهم خَوَل له أن يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم من شاء ، فمن امتنع من ذلك قتله .

ولم يلبث ابن الزبير أن انضمت أغلب الأمصار الإسلامية إليه ، فقد استجاب أهل البصرة له ، وأخذوا يطلبون منه أن يرسل إليهم أميرا من قبله يأخذ البيعة له ، وكذلك كان الحال في الحجاز

---

(١) بتصرف من أدب السياسة في العصر الأموي د . الحوفي ١١٥ ، ١١٦ .

(٢) الكامل لابن الأثير : ٤/ ١١٨ .

واليمن ومصر والشام .. وهذه كلها بوادر تدل على أن النصر يوشك أن يحالف ابن الزبير ، وزاد من تلك الخطورة أن بنى أمية بالشام كانوا منقسمين على أنفسهم ، ولم يتفقوا على رأى حاسم فى أمر الخليفة الجديد بعد معاوية بن زيد . إلا أن ابن الزبير لم يعرف كيف يستغل هذه الفرصة الطيبة ، ولو عرف لاضطر الأمويون إلى الإذعان والتسليم وغدا ابن الزبير بذلك خليفة المسلمين غير منازع .

ولم يطل الخلاف والشقاق الذى نشب فى حزب بنى أمية فسرعان ما أفاقوا لأنفسهم واجتمعت كلمتهم وولوا مروان بن الحكم الخلافة وأصبحت الشام مسرحا لحزبين كبيرين حزب الأمويين وحزب الزبيريين وقد اقتتل الفريقان قتالا شديدا فى موقعة "مرج راهط" وهزم فيها أنصار ابن الزبير سنة ٦٤ هـ ، مما آلم النفوس وترك فيها جرحا لا يندمل أثره . وفى ذلك يقول زفر بن الحارث من أنصار الزبيريين (١) :

أرينى سلاحى لا أبا لك إننى
أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا

ففى العيس منجاة وفى الأرض مهرب
إذا نحن رفّعنا لهن المثانيا

فلا تحسبونى إن تغيبتُ غافلا
ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا

---

(١) الطبرى : ٦/٤١ . والكامل لابن الاثير : ٤/١٥٢ .

لقد يَنْبُتُ المرْعى على دِمَن الـثرى
وتبقى حزازاتُ النفوس كما هيـا
لعمرى لقد أبقَتْ وقيعة راهـط
لحسّان صَدْعًا بيننا متنائيـا

وظل ابن الزبير فى صراع مع الأمويين إلى أن لاحت نهايته على إثر هزيمة جنده فى العراق ، إذ أسرع عبد الملك وأرسل قائده الحجاج بن يوسف الثقفى فى جيش إلى مكة للقضاء عليه ، فحاصرها وضرب الكعبة بالمنجنيقات فاحترقت (٧٣ هـ — ٦٩١ م) ، واضطر أنصار ابن الزبير إلى التخلى عنه ، وظل يقاوم إلى أن قتل سنة ٧٣ هـ ، فاستراح كل من الأمويين والخوارج من هذا الحزب المناوئ.

وشعر الزبيريين سجل واضح لأحداثهم ، فهو يدعو إلى الثورة على بنى أمية ، ويتمنى الخلاص منهم ، وكثيرا ماينذرهم ويريش لهم سهام الوعد والوعيد والتخويف والتهديد . ومن ينظر فيما تخلف عن موقعة مرج راهط من شعر لفريقى بنى أمية والزبيريين يرى مدى تمسك كل منهم بعصبيته واصراره على الانتقام من خصومه ثم يرى تمسك الزبيريين بالطاعة لابن الزبير ، وابتهاجهم به .

" الفصل الثانى " : تطور شعر الحرب والفروسية فى العصر الأموى

(١) شعر الحرب والفروسية قبل العصر الأمـــــوى

شعر الحرب والفروسية هو ذلك الشعر الذى يواكب الحروب والمعارك والثورات فيصور أحداثها وقوادها ، والآلات الحربيـــــة المستخدمة فيها ، ويصور ذلك كله تصويرا دقيقا يتمثل أتم تمثيـــل فى المتخاصمين أو المتحاربين .

أو هو ذلك الشعر الذى يصف خروج الكتائب للقتال ، وامتطاء الخيول فى المعارك ، ومايلى ذلك من أوصاف القوة والهيبة وعـــدم الخوف من الالتحام ، وما إلى ذلك من المعانى والأفكار التى تـــدور فى نطاق الشجاعة والبأس .. وغير ذلك .

والشعر بهذا المفهوم قديم عند العرب ، فلقد عـــــــرف الجاهليون القتال والنزال ، ولم تسد الروح الحربية فى أى عصـــر كما سادت فى العصر الجاهلى بلاد العرب ، وإن كانوا لم يحاربـــوا قوما بعيدين عنهم ، بل كانت جُلّ حروبهم غالبا بين قبائلهم فحسب وكل شعرهم طال أم قصر قد وصفت فيه المعارك ورويت فيه أخبـــــار البطولة وأهوال الوقائع وملاحمات الجلاد :

وإذا كان الحال أنه لم تخل أمة من حرب ، وهى إما أن تكون لها مع الجار أو مع من فى الدار[1] .. فإن حياة الجاهليين فـــــى

(١) شعر الحرب فى أدب العرب . زكى المحاسنى : ٣٣ . دار المعارف ط ٢.

البادية أولى وأجدر بأن تكون حياة فروسية وحرب ، فقد سعت كل قبيلة إلى التميز والتفرد والتفوق فى كل ما يخلد مناقبها ومفاخرها ثم إنهم كانوا ذوى مروءة وهمة ، وبلغت شجاعتهم درجة جعلتهم يؤثرون الموت فى ظل الكرامة والحرية ، ويبيعون أرواحهم رخيصة فى ميدان القتال دفاعا عن العرض أو ذودا عن الحرمات .

ومن يتصفح قصائد شعراء الجاهلية يجد بين يديه شعرا يحوى المعارك ، ويصاحب الجنود فى الذهاب للنزال ، ويرى الإقبال والإدبار ، والرمى بالنبل والطعن بالسيف . ثم يرى ما تسفر عنه المعارك من غنيمة للفائز وخسارة للمهزوم ، ومن اعداد العدة للثأر ... وما لابس ذلك كله من فخر وهجاء ورثاء .. وكأن القصيدة فى هذا الشمول تعد ملحمة كبرى تماثل ما لدى غير العرب من ملاحم [1] .

ومعروف أن بلاد العرب استحالت فى الجاهلية إلى ما يشبه ميدانا كبيرا تقتتل فيه القبائل وتتصارع ، وكانت الحرب فى دارهم سجالا ، فلا ينتهون من معركة إلا دخلوا فى غيرها ، بل إنهم لم يلبثوا أن ينتهوا من معركة حتى ينهض كل فريق لنجدة فريقه فتكون حرب جديدة ويوم آخر مشهود [2] ، فمن حروب الأوس والخزرج إلى حرب داحس والغبراء إلى حرب البسوس إلى يوم ذى قار إلى يوم

---

(١) انظر الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور د . شوقى ضيف ص ١٩ . دار المعارف ١٩٧٧ .

(٢) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ .

حليمة . وإلى غير ذلك من الحروب التى كثرت دوافعها وأسبابهـــــا عندهــــم .

هذا إذا أضفنا أنهم لم يكونوا زاهدين فى الشهرة والزعامــة وحب التسلط ، فإن كثيرا من ساداتهم وغطاريفهم شنوا الحرب مـــن جراء الإمارة . وكانوا كغيرهم من الأمم يتغلب فيهم القوى على الضعيف ولا يحمى لديهم الذمار إلا بحد السيف "(١) .

كذلك نشبت الحرب بينهم من جراء الحفاظ على الشرف والعرض والدفاع عن كرامة المرأة ، فهم يوقدون نار الحرب بسبب معشوقة هـــال أهليها العار ، وقد يكون طلب المال حاملا لهم على الحروب والفناء فى سبيله ، بل لعله يكون ستارا تنفذ من خلاله أحقاد الصدور ، كما حدث فى " حرب البسوس " والتى شبت بسبب ناقة للبسوس بنت منقذ وقد قيل فى هذه الحرب شعر كثير .

هذا إذا أضفنا أن الجاهليين كانوا ذوى حمية شديدة وقلوب جريئة ، ومهارة فائقة تجعلهم لا يبكون على من قتل فى معركة (٢) :

ولا تراهم وإن جلت مصيبتهم .:. مع البكاة على من مات يبكونا

أما شعر الحرب والفروسية فقد دار عندهم حول وصف الوقائع وما يدور فيها من أعمال البطولة والفداء ، ولم يكن وصفهم للمعـــارك

---

(١) شعر الحرب فى أدب العرب : ٣٤ .
(٢) الفتوة عند العرب ، عمر الدسوقى ص ٥٣ نهضة مصر ط ٤ .

فى قصائد كاملة ، وإنما هى لقطات سريعة فى أبيات شعرية ، فليس لديهم قصائد تصور لنا صورة واقعة من أولها إلى آخرها كما حدث ولو بقلة فيما تلا ذلك من فترات .

وقد وقفت المرأة تصف المعارك وتجيد تصوير الأبطال ، وكأنها أحست أنها تشارك الرجل فى الحرب فى أيام الجاهلية ، فلابد وأن تشاركه فى الشعور الحماسى تلقاء الحرب ونكباتها ، وماكنّ فى ذلك أقل إجادة من الرجال ، وكفاهن فخرا أن كانت بينهن الشاعرة الخنساء .

وقبل أن أنهى الحديث عن الشعر الجاهلى فإنى أستطيع القول بأن هذا الشعر يمكن أن نعتمد عليه فى استخلاص مادار بينهم من أحداث ، لأن الشعراء لم يتركوا صغيرة ولاكبيرة ، ولم يمر حدث دون أن يتحدث عنه أكثر من شاعر فحل .. كل ذلك فى ألفاظ قوية وجرس رنان وكلمات طنانة .

وقد خاطب كثير من شعراء العرب نساءهم حين يقولون شعرا فى الحرب والفروسية ، وهم فى ذلك يقررون أن المرأة ضرورية لشعر الحرب عندهم ، فهى تستثيرهم للحرب والمآثر ، يقول عنتره مخاطبا محبوبته فى معلقته (1) :

---

(1) ديوان عنترة : ١٥ ـ ٣١ . بيروت .

هلّا سألت الخيل يا ابنة مالـك
إن كنت جاهلة بما لم تعلـم
يخبرك من شهد الوقيعة أنـنى
أغشى الوغى وأعفّ عند المغـنم
ومدجج كره الكُماة نزالـه
لا مُمْعـن هربا ولا مستسلـم
جادت يداى له بعاجل طعنـة
بمثقّف صدْق الكعـوب مقـوم
فشككت بالرمح الأصم ثيابـه
ليس الكريم على القنا بمحـرم
ولقد ذكرتك والرماحُ نواهـل
منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنهـا
لمعت كبارق ثغرك المتبسـم

* * * * *

أما فى عصر صدر الإسلام فقد حدث انقلاب دينى مس حياة العرب فأخرجهم من حياة الوثنية إلى حياة روحية سامية ، فامتلأت قلوبهم بالإيمان .. الأمر الذى أدى إلى حدوث تطور وتغيير فى شعر الفروسية والحرب وبخاصة فى معانيه ، إذ دخلتها بعض المعانى والمبادئ الإسلامية .

وما أن نشبت المعارك بين المسلمين وبين قريش حتى أخذ شعراء كل حزب يتبارون في تسجيل مايدور في هذه المعارك ، وقد التزم شعراء المسلمين بالقيم والمبادئ الجديدة ، أما من عميت قلوبهم من شعراء مكة فقد وقفوا يحمسون قومهم ضد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ودعوته ، غير مبالين بما يقولونه من هجاء مقذع .

وزاد شعر الحرب والفروسية أنه لم يقتصر على وصف المعارك التي دارت بين جيش المسلمين وجيش الكفار فحسب ، بل أخذ يتخطى ذلك كله فواكب شعر الفتوحات الإسلامية ، وأخذ الشعراء ينظمون أناشيد حماسية مدوية ، يتغنون فيها بانتصاراتهم "[١] .

ويسود هذا الشعر الإيجاز . فهو شعر اللمحات السريعة والمواقف الخاطفة وجمهوره لذلك مقطوعات قصيرة ، يجري فيها الشاعر على سجيته دون تدقيق في معنى أو تنقيح للفظ أو التماس وزن أو قافية إنه يعبر عن خاطر التحم بصدره دون معاناة أو مكابدة ، ويرمي به في سرعة كما يرمي بسهمه أو يضرب بسيفه ، غير مفكر في تنقيح ولا في تصفية أو تهذيب ، ولذلك كانت تشيع فيه البساطة وعدم التكلف لما يعترض صاحبه من شواغل الجهاد التي تحول بينه وبين اطالة الفكرة كما تحول بينه وبين المعاودة للفظ وتجويده وتحبيره "[٢] .

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربي د . شوقي ضيف . العصر الإسلامي ص ٦٢ . دار المعارف ط ٨ .

(٢) المصدر نفسه : ٦٧ .

(٢) شعر الحرب والفروسية والحياة الجديدة فى العصر الأموى

لم يحس العربى فى العصر الجاهلى بوحدة سياسية إلا لقبيلته فهى دولته ، لها نظامها وعرفها المتبع وتقاليدها المتوارثة والقبيلة تجد فى وحدتها ما يكفل لها الحرية والقوة والسلامة .

ولما أشرقت بشائر الدولة الإسلامية ، بدأ الرسول — صلى الله عليه وسلم — يكون مجتمعا جديدا لا يخضع لعرف القبيلة بل يخضع لقانون واحد عام .. وهذا المجتمع الجديد ألبس ثوبا جديدا أحدث فى النظام الاجتماعى تغيرات أساسية ، ما لبثت الدولة الناشئة أن عمت بسببها جزيرة العرب وما جاورها .

وما أن لحق الرسول — صلى الله عليه وسلم — بالرفيق الأعلى حتى ظهرت بوادر العصبية الخامدة ، وأخذ المسلمون يتحدثون عن أمر الخلافة ، وكادت تحدث الفتنة بين المهاجرين والأنصار لولا أن قيض الله سبحانه وتعالى لهذا النزاع أبا بكر وعمر فقاما بإخماد الفتنة ، وحاولا الاحتجاج لقريش على الأنصار .

وقد وقف الشعر يرصد الأحداث ، فانتصب لكل حزب شاعر يتحدث بلسانه ، وأخذ كل شاعر يدلل على أحقية حزبه بالخلافة فشاعر قريش يستبشر بها ، ويندد بتطلع الأنصار إليها ، ويحتج بأن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : " الأئمة من قريش "

وأنه أوصى المهاجرين بالأنصار ، وأن العرب لاتدين إلا لقريش فضلا عن أنهم أول من آمن ... وشعراء الأنصار لم يرتضوا هذه الدعوى ، وأخذوا يحتجون بأنهم هم الذين آووا ونصروا .

ومهما كان الأمر فقد نجم عن هذا الخلاف أن ظهرت في قريش عصبية جعلتها تستعلى على غيرها ممن اعتنقوا الإسلام ولم يكن لهم في العرب نسب صريح ، الأمر الذى جعلها تخرج عن أصل من أخطر أصول الإسلام وهو المساواة والعدل .

وانقضى عهد أبى بكر وعمر فى سلام ووئام ، فكل منهما قد تنبه إلى مايكفل للمسلمين وحدتهم ، ويذود عنهم من الخطر الخارجى الذى يتهددهم من الفرس والروم .. لكن ماأن انقضى عهد الشيخين حتى زالت عوامل وجدت أسباب أحدثت ذلك التطور المنتظر .

فقد اختير عثمان بن عفان للخلافة ، فظهر التذمر وسخط كثير من المسلمين على خلافته ، وأخذت الفتنة تشتعل حتى انتهى الأمر بمقتل الخليفة ، وكان هذا أخطر حادث سياسى فى تاريخ الإسلام ، لأنه أوسع باب الفتنة ، وجعل الحفاظ على وحدة الجماعة الإسلامية أمرا بعيد الاحتمال .

ثم آلت الخلافة لعلى بن أبى طالب ، وظهرت فى الحال جماعة موالية لعثمان ، أخذت تطالب بمعاقبة قاتليه . وأشهر

هؤلاء هو معاوية بن أبى سفيان ابن عم عثمان وواليه على الشـــام وأخذ معاوية هو ومن أحجموا عن مبايعة على يعلقون الدخول فـــى البيعة بتسليم على لقتلة عثمان .

وبدأ على مسعاه فى إعادة تقاليد الخلافة ، فهم بعـــزل ولاة عثمان ، ولم يصغ لنصيحة بعض الصحابة له بإبقائهم حـــتى تهدأ الحال وتستقر الأمور .. وأطاع العمال أمر العزل إلا معاوية فقد مكنته إقامته الطويلة فى بلاد الشام من تكوين حزب قوى يناصـره ويحميـــــه .

وبدأ معاوية العمل ، وازداد سخطه ، وكان يليه فـــى السخط الصحابيان الجليلان طلحة والزبير ، فسرعان ما انقلبا علـــى علىّ ، واتهماه بأنه الذى دبر مقتل عثمان ، وأنه المستفيـــــد الوحيـد منـــه .

* * * * *

واتسعت من ثم الهوة بين المسلمين ، ونشأت بينهم أحزاب سياسية حقيقية ، لكل منها مذهبه وآراؤه ، وظهرت على الساحة ثلاثة أحزاب سياسية ، أخذت تعارض بنى أمية ، وتخاصمهـــم وتدعو إلى الانقضاض عليهم ، وهى أحزاب الشيعة والخـــوارج والزبيريون [1] ، وامتلأ عصر هؤلاء جميعا بكبريات الخطوب ، وندر أن

(١) انظر : الخطابة فى صدر الإسلام د. محمد طاهر درويش الفصل الثانى .

ضرب التاريخ مثلا بشدة الحروب وانصباب الدم كالذى ضرب فى عصر الدولة الأموية وماقبله .

* * *

وهكذا تعقدت الأمور السياسية فى العصر ، وأصبح لزاما على الشعراء أن يعدوا أنفسهم لمهمة كبرى ، ينهضون بأعبائها الجسام متمثلة فى أشعار الفروسية ووصف الحرب ، فالعصر ومافيه من سياسة معقدة وحروب وفتن قد أوجب على الشاعر أن يخضع لسلطان الحرب والسياسة .

ولعلنا لانعدو الحقيقة إذا قلنا إن قرائح الشعراء فى هذا العصر هى التى هيأت لخدمة هذا الضرب من الشعر ، فالعصبية التى سادت العصر دفعت الشاعر إلى أن يخوض فى شعر الفروسية وينشد أبياتا يفضل بها قبيلته وقومه على من يذهب غير مذهبهم من أعدائهم ومناوئيهم . وقد نبغ فى هذا — بفضل القرائح الفذة — شعراء فحول استطاعوا أن يفوقوا غيرهم فى الفخر والحماسة ودعايات السياسة وذكر الحروب .

وقد يكون من دافع التفوق أن الشعر الأموى قد تأثر فى شعر الفروسية بالشعر الجاهلى وسار على غراره . وأى شعر فى الفروسية أشد قيدًا وأبعد أثرًا من الفروسية الجاهلية ، فقصائدهم فيها يعتز بها الأدب العربى لما فيها من دقة التصوير وبراعة الوصف ومتانة الديباجة .

ولايمكن القول بأن شعر الفروسية فى العصر الأموى يخلو من المآرب السياسية ، فهذا حكم لايخلو من غلو وتطرف عن الحقيقة وإن كان هذا الشعر فى حد ذاته قد قيل لوجه الفروسية وحدها فلم يجرد الخصوم مما عرفوا به من صفات الفروسية .

وقد تكون السياسة هى الدافع إلى نظم شعر الفروسية فهو ـ أى شعر الفروسية تتمة طبيعية لصراعات العصر وخصوماته وما اختارت الأحزاب السياسية الحرب ولا امتشقت السيوف إلا لإزالة الحواجز الماثلة أمام مآربهم السياسية ، ثم إن من الشعراء ـ وبخاصة شعراء الخوارج ـ من كانوا فوارس فى الميدان ، وقد وظف شعراء الخوارج شعرهم لصالح دعوتهم حتى كادوا يقصرونه عليها .

وأحسب أن هؤلاء الشعراء ، وبخاصة العمالقة منهم (جرير والأخطل والفرزدق) لو خلصوا إلى شعر الفروسية ، وإلى حروب العصر فوصفوا وقعاتها ، وأسكبوا خيالاتهم الرائعة فى هذا الوصف ، ولم يكتفوا بأبيات يبثونها بين شعر المدح والفخر والهجاء لخلدوا فروسية الأبطال الذين أنبتهم عصر بنى أمية ، لما روى عن خوارق بطولاتهم وروائع شجاعتهم واقدامهم فى الحرب والجود بأنفسهم فيها .

لكنهم وكانوا عصبة كبرى تألب بعضهم على بعض من جراء العصبية التى ورثوها من الجاهليين لقرب العهد بينهم وبين أهلها

وأخذوا يتراشقون بهجاء شغل رواة الأدب ومؤلفيه قديما وحديثا .

* * *

فهذا هو الفرزدق شغله شعر الهجاء عن شعر الحرب واقتصر فى وصفه للحرب بأبيات بثها فى ثنايا قصائده الأخرى . فهو فى هجائه ليزيد بن مسعود بن خالد يأتى بأبيات فى الفروسية عند قومه تحس منها أنه لم يلم بوصف المعارك ، ولم يبذل جهدا فى تصوير وقائعها والتحام جيوشها ، وكأنه لم يعرف شيئا عن فنون الحرب يقول :(١)

وكم من رئيس غادرته رماحنا
يمج نجيعاً من دم الجوف أحمرا
ونحن صبحنا الحى يوم قراقر
خميساً كأركان اليمامة مذ سرا
ونحن أجرنا يوم حزن ضرية
ونحن منعنا يوم عينين منقرا
ونحن حدرنا طيئا عن جبالها
ونحن حدرنا عن ذرى الغور جعفرا
بأرعن جرار تغىء له الضوى
إذا ما اغتدى من منزل أو تهجرا

---

(١) الديوان : ١٩٥/١ .

له كوكب إذ ذرّت الشمس واضحٌ
ترى فيه منّا دارعين وحسرا

وعلى كل حال فلم يشذ شعر الحرب والفروسية عن التطور الذى ساد العصر الأموى ، وامتلأت دواوين شعراء العصر بمنظومات حماسية تصف الحروب والفتن ، وهى حماسة لاتحركها العصبية القديمة فحسب ، بل كان يحركها فى الأعم الأغلب ماساد العصر من صراعات حزبية ندر أن نجد فى عصر آخر مثيلا لها .

هذا إذا أضفنا أن شعراء الأحزاب المعادية للأمويين كانوا غلاة فى مبادئهم ، وكان لكل شاعر منهم دعوة فى شعره الحربى فهناك إلى جانب شعراء الحزب الحاكم شعراء الخوارج ، وهم قوم يرفضون الحياة تحت الخضوع لآراء غير آرائهم ، وظلوا بفرقهم المختلفة يحاربون الأمويين حربا مقدسة .

يقول شاعرهم قطرى بن الفجاءة فى الحرب :[1]

لا يركننْ أحد إلى الإحجام
يوم الوغى متخوفا لحمام
فلقد أرانى للرماح دريئةً
من عن يمينى مرة وأمامى

---

(١) شعر الخوارج د. احسان عباس : ١١٢ . بيروت ط ٣ .

حتى خضبتُ بما تحدَّر من دمـــي
أكنافَ سرجي أو عنان لجامـــي
ثم انصرفت وقد أصبت ولم أُصَـــبْ
جَذَعَ البصيرة قادحَ الإقـــدام
متعرضا للموت أضربُ معلمـــا
بُهَمَ الحروب مشهَّـــر الأعـــلام
أدعو الكماة إلى الـــنزال ولا أرى
نحرَ الكريـــم علـــى القنـــا بحـــرام

وهناك حزب الشيعة ، وكان شعراؤه يصورون في شعرهـم اضطراب الأمور في العراق ، وأخذوا ينافحون خصومهم ، ويدفعون أنصارهم إلى التضحية وبذل الأرواح في سبيل تحقيق أمانيهم والزود عن حياضهم ، وكان شعرهم صدى لحروب الشيعة مع غيرها مـــن الأحزاب الأخرى (١) .

ثم كان حزب الزبيريين ، ووصف شعراؤه ثورات حزبهم ضـــد الأمويين ، وقد صوروا لنا من خلال شعرهم الحربي ما آل اليه أمـــر الحجاز من اضطراب ، ولا أدل على ذلك من شعر عبد الله بن قيس الرقيات ، فقـــد خرج معاديا للأمويين ومَن والاهم ، ومشيـــدا بالبطولات التي عرفها التاريخ للزبيريين .

---

(١) انظر هاشميات الكميت وما فيها من شعر لأبطال الشيعة .

قال عبد الله يصف أفراسه مع قومه وقد ركبها :(١)

فَغَدَوْنا بهنّ فى غَبَش الليـ
ـل دِقاقا كأنهن المَغالى
أدركَ الذَّحلَ فتيةٌ من بنى عمـ
ـرو بصبر النفوس بين العوالى
لو رأتنى ابنةُ النُّوَيْجِم ليلى
إذ نَلُفُّ الأبطال بالأبطال
حين ننعى أخاك بالأَسَلِ السُّمْـ
ـر وشُعْثٍ كأنهنّ السعالى
لشفى نفسك انتقامُ بنى عمـ
ـك حين الدماءُ كالجريال
طَلَّ مَنْ طَلَّ فى الحروب ولم يُطْـ
ـلل عَلِىٌّ ولا دماء الموالى
وبنى مالك بن حِسْلٍ تأَرْنا
غير فخر بنا وغير انتحال
وأصبنا بعد الرجال رجالا
وحوينا الأموال بالأموال

وهكذا كانت الصراعات الحزبية عاملا قويا فى اتساع آفاق هذا

(١) الديوان : ١١٦ ، بيروت ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م .

الشعر ، وفى تعدد مناحيه ، حتى جاء غنيا بالمعانى الحربيـــة ومعبرا أصدق تعبير عن المعارك والوقائع التى شهدها العصــــر وإن كان هذا الشعر قد جاء فى بعض الأحيان ممزوجا بأغراض شعرية أخرى ، حتى صارت جل قصائد الحرب والفروسية ممزوجة بالهجـــاء والفخر والمدح والرثاء ، ظهر ذلك فى المدح والهجاء عند كل من جرير والأخطل والفرزدق ، كما ظهر فى الرثاء خاصة عند شعراء الخوارج.

فالصلة إذن بين شعر الحرب والفروسية وبين الأحـــداث السياسية فى هذا العصر صلة قوية ووثيقة ، بل إنهما متلازمان ، لأن شعر الحرب والفروسية شعر يدور حول وصف أحداث البطولة فـــى المعارك الحربية سواء أكان مدار القول هو قائد المعركة أو أميـــر الحملة أم كانت حول الجنود وآلاتهم الحربية ، أم متعلقة بالشاعـــر الفارس الذى يفخر بشجاعته ويصف أعمال الفروسية التى تصدر عنه فى حومة الوغى . وهذا الشعر هو شعر الاستماتة فى سبيل الغاية التى بسببها يناضل أولئك المنازلون فى المعارك ، والخائضون للأحداث السياسية ، فكلما نشبت معركة أو حدث صراع سياسى لأمر ما نجـــد الشعر يصف تلك المعركة ويعبر عن هذا الصراع وما يدور فيه مــــن أحداث ووقائـــع .

وهذا كله يجعلنا نكرر أن شعر الحرب والفروسية عند العرب عامة يمتاز عن مثيله عند غيرهم ، فهو وليد مواقف وصراعات حقيقية وقعت بالفعل .. ثم إن هؤلاء الشعراء الذين تغنوا بهذا الشعر كثـــيرا

ماكابدوا الحروب وعانوا شدائدها ، فلم يقولوا الشعر وهم بعيدون عن الحروب ، ولم يسجلوا وقائعها دون أن يكون لهم عهد بها كما يفعل معظم شعراء الأمم الأخرى .

* * * * *

(٣) نهضة شعر الحرب والفروسية

ليس من شك فى أن العصر الأموى شهد عدة ظواهر جديرة بالتسجيل والدراسة ، ففيه تطور الشعر ، وأصبح له دور بارز فى تصوير الحياة الجديدة وماحدث فيها من تطورات سياسية سادت العصر من مبتدئه إلى نهايته .

ولو ذهبنا نلتمس فنون الشعر وموضوعاته فى هذا العصر وجدناها تنبع غالبا من روافد ثلاثة : رافد تقليدى يتمثل فى الموضوعات القديمة كالمدح والهجاء والفخر والوصف ... ورافد كان قبل ضيق الأفق قريب الغور ، إلى أن كان العصر الأموى فلم يبق على ماكان عليه قبل ، بل استعت مناحيه ودخلها كثير من التجديد الذى جاء بسبب الحضارة بألوانها المختلفة . ذلك هو شعر الغزل العذرى .

أما الرافد الثالث فإنه مع ثرائه وذيوعه جديد كل الجدة بما استكمل من مقومات فى هذا العصر .. ذلك هو الشعر السياسى

ومنه شعر الحرب والفروسية ، وقد كان الصراع الحزبى أبرز أثرا فى هذا الشعر من الصراع الحزبى فى أواخر صدر الإسلام أو فى عصر بنى العباس .

وأحسب أنه لايستطيع أحد أن يفصل بين شعر الحرب والفروسية وبين الشعر السياسى ، فإن ثمة شعرا كثيرا من النوع الأول كانت السياسة دافعة إليه ، وماقيل منه لأجل الحرب قيل أيضا لوجه السياسة (١) .

ولعلنا لانعدو الحقيقة إذا قلنا إن الشعر السياسى الذى أثمره الصراع فى العصر الأموى يعد تراثا ضخما فى أدبنا العربى وهو — وإن امتدت العوامل الفعالة فى نهضته وازدهاره إلى غيره من العصور — يعد مرآة لمجتمع شهد صراعا حزبيا أشد عنفا وأطول مدى ، ونجمت فى أرضه دعوات وآراء سياسية متعارضة ، نشأ بسببها حزب وأفل بسببها نجم حزب آخر .

* فما هى إذن العوامل الفعالة فى ازدهار الشعر السياسى ؟ وما الأصول التى قامت عليها نهضة هذا الشعر ؟ لأن كل هذه العوامل تمتد إلى شعر الحرب والفروسية ، لما كان للشعر السياسى من تأثير واضح فى هذا اللون من الشعر .

---

(١) انظر شعر الحرب فى أدب العرب د . زكى المحاسنى : ٥١ـ ٥٥ .

(١) تعدد الأحزاب السياسية :

ليس من شك فى أن الحياة السياسية فى عصر بنى أمية لم تكن حياة هادئة ، بل كانت حياة ثائرة ، وقد وقفت الدولة الأموية طوال عمرها أمام الأحداث العنيفة ، فلا تكاد تتغلب على عدو حتى يبرز لها عدو آخر ، حتى إذا أذن الله أن تتغلب عليه فاجأها عدو آخر أو أفاق العدو الأول ليستأنف معها المعركة من جديد " (١) .

وسرعان ما تكونت تحت تأثير هذه الصراعات أحزاب سياسية ثلاثة أخذت تعارض بنى أمية وتخاصمهم وتدعو إلى الخلاص منهم وقد تألفت هذه الأحزاب حول فكرة الإمامة أو الخلافة ومن الأحق بها من المسلمين ؟ (٢) وأهمها أحزاب الشيعة والخوارج والزبيريين .

يقول جورجى زيدان : " يختلف العصر الأموى عن عصر الراشدين اختلافا كبيرا من أوجه كثيرة ، ويعد انتقال الدولة الإسلامية إلى بنى أمية انقلابا عظيما فى تاريخ الإسلام ، لأنها كانت فى زمن الراشدين خلافة دينية ، فصارت فى أيامهم ملكا عضوضا وكانت شورية فأصبحت إرثية ، وقام معاوية يطلبها ، وينازع أعمام النبى وأبناء عمه عليها ، والمسلمون يعتقدون حق هؤلاء فيها

---

(١) الدولة الأموية فى الشرق بين عوامل البناء ومعاول الفناء ، د . الطيب النجار ص ٥٥ .

(٢) التطور والتجديد فى الشعر الأموى . شوقى ضيف ص ٨٥ . دار المعارف ط ٦ .

وأن معاوية طليق لاتحل له الخلافة ، وأنه لم يعتنق الإسلام إلا مكرها ، ولكنه تمكن بدهائه وسعة صدره وبذله الأموال من التغلب عليهم جميعا ، فأسس الدولة الأموية " (١) .

وأكبر الظن أن تعدد الأحزاب وتصارعها بالألسنة والأقلام كما تتصارع بالسيوف والرماح ، ووقوف كل شاعر بجانب حزبه يعضده ويدعو له ، ويحمل على خصومه ، كان من أقوى العوامل فى نهضة الشعر بصفة عامة ، وكان أشد هذه العوامل قوة فى نهضة الشعر السياسى بصفة خاصة ، فهو ينبوع ثر له ، ولو لم تكن الحزبية والصراع ماكان ذلك الضرب من الشعر .

كما كان لظهور هذه الأحزاب على مسرح الحياة السياسية أثر مباشر وخطير فى ظهور ذلك اللون الجديد من الشعر السياسى الذى تمثلت فيه شخصيات تلك الأحزاب ومبادئها وأهدافها ، فأنت تشهدها عند كل صدام للشعراء ، وتراها فى كل معاركهم ، وفى كل جولة من جولاتهم . بل إن هذا اللون من الشعر سرعان ما اتسع بين شعراء الحزب الأموى ، فتعددت فيه مشاربهم وأهواؤهم حتى أصبح لكل شاعر منهم موقف خاص وظروف معينة تربط بينه وبين بنى أمية (٢) .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : ١/١٩٢ ، الهلال ١٩٣٦ .

(٢) انظر تاريخ الشعر العربى ، الكفراوى : ١/٨٩ ومابعدها دار نهضة مصر .

(٢) تقدير الحكام للشعر وللشعراء :

كان خلفاء بنى أمية أشد ميلا إلى العلم والأدب ، وكانوا يزاحمون العلماء والأدباء ويجعلون من مجالسهم حلقات لأرباب المعرفة ، يتصارعون فى الرأى ، أو يقارعون فى الحجة ، حتى اشتهر كثير منهم بالشعر وروايته (١) .

ولقد حرص الخلفاء على اجتذاب الشعراء واتخاذهم ألسنة تنافح عن حكمهم ، وتدعو إلى تقبله وتأييده . وكان معاوية أسبق الخلفاء إلى انتهاج هذه السياسة ، بل إنه انتهج ذلك قبل أن تئول إليه الخلافة (٢) .

وموقف معاوية من الشعر جدير بعناية الدارسين ، لأنه يعطى فكرة واضحة لروح ذلك العصر ووجوه العام ، فقد قال : "يجب على الرجل تأديب ولده ، والشعر أعلى مراتب الأدب . وقال : اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر دأبكم "(٣) .

وكان عبد الملك بن مروان أوضح سبيلا فى تشجيعه حفظ الشعر وروايته ، ففى عهده أصبح الشعر أكثر من أى وقت آخر شديد الالتصاق بمجرى الحياة اليومية .

---

(١) انظر الأدب الأموى د . أبو الخشب : ١٧ ومابعدها . الهيئة المصرية العامة .

(٢) أدب السياسة فى العصر الأموى ، د . الحوفى : ٢٥٧ .

(٣) العمدة لابن رشيق : ٢٩/١ . دار الجيل بيروت .

ولعل خير مثال نسوقه للدلالة على مكانة الشعراء عند الخلفاء ، هو الأخطل فقد اصطفاه يزيد بن معاوية طوال خلافته وقربه إليه عبد الملك بن مروان ، وكان عبد الملك عظيم الإعجاب به كثير المكافأة له .

قال مرة لعبد الملك : يا أمير المؤمنين ، زعم ابنُ المراغة أنه يبلغ مدحتك فى ثلاثة أيام وقد أقمت فى مدحتك :

* خفَّ القطين فراحوا منك أو بكروا

سنة فما بلغتُ كل ما أردت . فقال عبد الملك : فأسمعناها يا أخطل ، فأنشده إياها ، فجعلت أرى عبد الملك يتطاول لها ثم قال : ويحك يا أخطل ! أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ؟ قال : اكتفى بقول أمير المؤمنين . وأمر له بجفنة كانت بين يديه فملئت دراهم وألقى عليه خلعا ، وخرج به مولى لعبد الملك على الناس يقول : هذا شاعر أمير المؤمنين ، هذا أشعر العرب[1]

والحجاج بن يوسف مع ما فيه من جد وصرامة كان يسير فى ذلك الاتجاه ، فكان يستشهد بالشعر وبخاصة الجاهلى منه والأمر المؤكد أنه وغيره من الأمويين شجعوا بمختلف الأساليب والسبل احياء تراث العرب وعلى رأس ذلك الشعر ، وقد دفعهم هذا

---

(١) الأغانى للأصبهانى : المجلد الثامن ٣٠٣٣، ٣٠٣٤ كتاب الشعب ط ٢ .

الاهتمام إلى النظر للشعر نظرة تكاد تخالف نظرة من سبقهم [1] .

وقد انتهج ولاة بنى أمية وقوادهم هذا النهج ، فشجعوا الشعراء على الإشادة بهم ، حتى رحل الشعراء إليهم ومدحوهم ونالوا عطاياهم ، وظلوا يتزاحمون على قصورهم ، حتى أصبح لهم شعراء فى كل مصر .

ولو أردنا احصاء شعراء الدولة الأموية لوجدنا ذلك أمرا شاقا ، وحسبنا أن نذكر أن من شعرائهم بالجزيرة (الأخطل) و (أعشى تغلب) وبالبصرة (جرير والفرزدق) وبالكوفة (عبد الله الأسدى) وبالمدينة (الأحوص) ، وبمكة (أبا العباس الأعمى) وبالشام (عدى بن الرقاع العاملى) .

على أننا نضم إلى هؤلاء الشعراء شعراء آخرين عرفوا بأنهم من شعراء البلاط الأموى ، يدورون فى فلك خلفائه ، ويتبنون آراءهم ، ويظهرون حقهم فى الخلافة .. وقد أفاد هؤلاء شهرة وذكرا بين الناس بفضل مدائحهم فى الأمويين وثنائهم عليهم . ومن هؤلاء القطامى ، ومسكين الدارمى ، ونابغة بنى شيبان ، وكعب الأشقرى ، والمتوكل الليثى ، والراعى النميرى . فمن هؤلاء من أخلص للأمويين إبان ملكهم ، وظل على هذا الإخلاص بعد أن دالت دولتهم وزال ملكهم .

---

(1) انظر شعر البصرة فى العصر الأموى د . عون قاسم : ٧٧ ومابعدها دار الثقافة بيروت ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م .

وقد انتهج القصر سياسة التشجيع للشعراء ، فوزع عليهم حظوظهم من الشهرة والرزق ، وكان يتصرف فى شعرهم ويحدد لهم مجال القول فيه [1]، وانتهج الشعراء نفس النهج ، فانصاع كل منهم لما هو مطلوب منه ، وأخذ يتحين الفرص المواتية لكى يقول فيما وضع له بدافع الرغبة أو الرهبة دون أن يصادف نظمه هوى فى نفسه .

تقول الدكتورة بنت الشاطىء : " إن قسوة الوضع الاجتماعى تحت حكم الفرد المطلق ، نشأ عنها انحراف فنى خطير ، حين غلبت كثرة من الشعراء على وجدانهم وضمائرهم وألسنتهم ، فانساقوا — تحت ضغط الرهبة أو الرغبة — يقولون مالا يجدون ، وشاع النفاق والتزييف الوجدانى ، والمبالغات المسرفة ، والدعاوى المسرفة " [2] .

ولعل هذا هو السر فى أننا إذا أجلنا النظر فى شعر المديح نلمس فى كثير منه نفاقا وتزييفا فى المشاعر .. وهذا أمر طبيعى ، لأن الشعر تحت هذا الوضع وفى مثل هذه الظروف لايخرج قطعة من نفس الشاعر ، لأن الشاعر إذا صادف النظم هوى فى نفسه فإنه يجد راحة فى شعره ويخرج الشعر قطعة من شعوره بصرف النظر عن عوامل الضعف أو الازدهار التى قد تعترى العصر .

---

(١) قيم جديدة للأدب العربى د . بنت الشاطىء ص ١٠٠ ط ١٩٦١م
(٢) قيم جديدة للأدب العربى : ١٢١ .

(٣) ازدهار الثقافة الدينية والأدبيــة :

لا شك أن عصر بني أمية قد أمدته روافد عديدة دعته دعما وهو دعم نجد آثاره في كثرة المناظرات التي نشبت بين الأحـــزاب السياسية المختلفة ، وبين الآراء المتباينة في الدين ، إذ كان الفقهاء يتجادلون طويلا في مسائلهم الفقهية بين أيدي الخلفـــاء وفي مجالسهم الخاصة والعامة ، وقد كثرت هذه المناظرات حـتى نشأ عنها علم الاختلاف أي اختلاف الفقهاء (١) .

كذلك نجد آثار هذا الدعم في ازدهار الثقافة الدينية مثـل علوم الفقه والتفسير والحديث ، وشيوع الجدل في المسائل الفقهية (٢) وكثيرا ما كان يتعداها إلى مسائل تعد من الأصول الأولى لعلـــم الكلام ، مما جعلهم يتوزعون فرقا وأحزابا ، بل وتتوزع الفرقة الواحدة إلى فرق ، مثل الخوارج فقد ضمت فرق الأزارقة والنجدية والصفريـة والإباضيــــــة .

هذا إلى ازدهار الثقافة الأدبية من لغة وشعر وأخباره فقد خطت تلك الثقافة خطوات واسعة دفعت بالأمويين إلى الاعـــتزاز بما خلف العرب من تراث أدبي ، والاهتمام بصبغ دولتهم صبغة عربية وقد جرهم ذلك إلى الاهتمام بالشعر الجاهلي كوسيلة لإحياء أمجـاد الماضي بقصد رسم صورة مشرقة للحاضر .

---

(١) تاريخ الأدب العربي د. شوقي ضيف العصر الإسلامي : ٢٠٤ دار المعارف ط ٨ .

(٢) انظر البيان والتبين للجاحظ : ١/٢٤٣ ، ٢/٣٢٢ ، ٣٢٣ .

وقد نتج عن هذا أن احتفى الخلفاء بالشعراء فأغدقوا عليهم العطايا ، واهتموا بالشعر وروايته ونقده ، وعقدوا مجالس للسمر به فى قصورهم ومجالسهم .

على أنهم لم يكتفوا بتشجيع الشعراء فحسب ، بل أخذ كثير منهم يغرون بعض الشعراء ببعض ، ويحرضون بعضهم على هجاء بعض ولعل غاية الخلفاء من هذا أنهم أرادوا أن يشغلوا الشعراء وقبائلهم بالصراع الأدبى ، ويصرفوهم عن المشاركة فى السياسة .

وذكر الأصبهانى أن جريرا وقف على باب عبد الملك بن مروان والأخطل داخل عنده ، وكانا قد تهاجيا ولم ير أحد منهما صاحبه فلما استأذنوا عليه لجرير أذن له فدخل فسلم ثم جلس وقد عرفه الأخطل ، فطمح طرف جرير إلى الأخطل وقد رآه ينظر إليه نظرا شديدا فقال له : من أنت ؟ فقال : أنا الذى منعت نومك وتهضمت قومك . فقال له جرير : ذلك أشقى لك كائنا من كنت : ثم أقبل على عبد الملك فقال من هذا يا أمير المؤمنين جعلنى الله فداءك ! فضحك ثم قال : هذا الأخطل يا أبا حَزْرَة . فقال جرير : فلاحياك الله يا ابن النصرانية أما منعك نومى فلو نمت عنك لكان خيرا لك ، وأما تهضمك قومى فكيف تهضمهم وأنت ممن ضربت عليهم الذلة وباء بغضب من الله وأدى الجزية عن يد وهو صاغر . وكيف تتهضم لا أم لك قوما فيهم النبوة والخلافة وأنت لهم عبد مأمور ومحكوم عليه لا حاكم . ثم أقبل على عبد الملك فقال : ائذن لى يا أمير المؤمنين فى ابن النصرانية

فقال : لايجوز أن يكون ذلك بحضرتى » (١) .

وكان معاوية عظيم الإعجاب بالشعر ، وكثيرا مايستشهد به فى المواقف والمناسبات . حدث مرة فقال : لقد رأيتنى ليلة الهرير بصفين — وقد أتيت بفرس أغرّ مُحَجَّل بعيد البطن من الأرض ، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى — فما حملنى على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الاطنابة :

أبَتْ لى همتى وأبى بلائى
وأخذِى الحمدَ بالثمن الربيح
واقحامى على المكروه نفسى
وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشَتْ
مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحات
وأحمى بعد عن عرض صحيح (٢)

على أن الخلفاء قد عنوا بفصاحة أبنائهم فعهدوا بتربيتهم وتهذيبهم إلى طائفة من العلماء ، وقد أخذ هؤلاء المؤدبون يثقفون هؤلاء الناشئة باللغة والشعر والتاريخ والأنساب .

(١) الأغانى : المجلد الثامن : ٢٨٠٨ ، ٢٨٠٩ . دار الشعب .
(٢) العمدة : ٢٩/١ .

وقد أوصى معاوية باتخاذ الشعر وسيلة من وسائل التربية فقال : " يجب على الرجل تأديب ولده ، والشعر أعلى مراتب الأدب " (١) .

كل هذا التشجيع كان سببا مباشرا فى تأنق بعض الشعراء فى شعرهم ، كما كان سببا فى ظهور رواة للشعر ، يحرصون على جمعه وحفظه وتدوينه ، وقد اشتهر من بين هؤلاء أدباء أعلام مثل حماد والأصمعى وأبى عمرو بن العلاء (٢) .

(٤) ويتصل بهذه الأسباب أسباب أخرى من بينها ماساد العصر من حرية ، تمثلت فى تغاضى الخلفاء عن هفوات الشعراء ، وعفوهم عن الثائرين منهم الذين حملوا على بعض الخلفاء ، أو قبحوا سياسة أحد من الأمراء . يضاف إلى ذلك ماحدث من نماء للثقافة اللغوية ، ومن الجدل المحتدم بين الفرق الدينية ، وكثرة الوفود على الخلفاء والولاة ، وماتهيأ للشعراء من قرائح فذة دفعتهم دفعا لخدمة هذا الضرب من الشعر ، حتى نبغ فيه شعراء فحول هزوا الدنيا بشعر الهجاء والفخر والحماسة ودعايات السياسة وذكر الحروب .

وإذا كان شعر الحرب والفروسية (٣) يعد أثرا من الآثار

---

(١) المصدر نفسه ونفس الصفحة .

(٢) انظر ضحى الإسلام أحمد أمين : ٢ / ٢٩٨ ومابعدها . نهضة مصر ط ٨ سنة ١٩٧٤ .

(٣) راجع عنوان "شعر الحرب والفروسية والحياة الجديدة فى العصر الأموى".

الطبيعية التي تمخضت عن الأحداث السياسية بما تتضمن من ثورات ومعارك دارت رحاها على أرض الدولة ، فإن التلازم بين هذا الشعر وبين تلك الأحداث والتطورات أمر لا ينكره أحد ، فكلما وقعت صراعات سياسية أو تمخضت هذه الصراعات عن معارك حربية فإننا نجد شعر الفروسية والحرب يلازم هذه الأحداث ويعبر عنها وعما يدور فيها من أحداث ووقائع .

ومن هنا فإن عوامل نهضة الشعر السياسي في العصر الأموي هي نفسها عوامل نهضة شعر الفروسية والحرب ، لأن العلاقة بين الشعرين كعلاقة الكل بالجزء ، إلا أننا يمكن أن نضيف إلى هذه العوامل عوامل أخرى قد تكون أخص من سابقتها وأقرب إلى نهضة شعر الفروسيه والحرب ، وهذه العوامل هي :

أ — الصراع الأدبي الذي نشأ نتيجة طبيعية لسياسة الأمويين وولاتهم ، إذ كانوا يحرضون الشعراء على هجاء بعض وذم شجاعة غيرهم ، وما لهم من سلطان ، ومن هنا انبرى الشعراء يحمدون أنفسهم وقومهم ويذمون خصومهم الذين قد يكونون خصوم حرب وهذا الفرار هو نفسه الذي كان يفخر عليه شعر الحرب والفروسية (1).

---

(1) انظر شعر الحرب في أدب العرب : ٥٦ — ٥٩ .

ب — أن الشعر الأموى قد تأثر فى عمومه بالشعر الجاهلى وشعر الحرب والفروسية قد تأثر من فواتحه إلى خواتيمه بالشعر الجاهلى ، وأى شعر فى الحماسة والحرب أشد قيدا وأبعد أثرا من الحماسة الجاهلية وشعر الحرب فيها [1] . لما فيها من دقة التصوير وبراعة الوصف ومتانة الديباجة .

جـ — وقد تكون موضوعات شعر الفروسية والحرب هى التى هيأت القرائح ودفعت الشعراء الى أن يرتقوا بهذا الفن من الشعر لأنه لم يحدد أحد للشاعر مجال القول فيه ، ولكن الشاعر هو الذى يهب نفسه له فيصف المقاتلين يتلاحمون بين الحياة والموت ، ساكبا على كل ذلك تعابير العربية فى أروع قوالبها .

د — ثم أن شعراء الفروسية والحرب كانوا مسوقين لهذا الشعر بدافع من الروح الإسلامية ، فهم يدافعون عن حوزة الإسلام إذا ما كانت الثورات والحروب فى الأقاليم والأمصار المفتوحة ، ويبتغون فى الدين المثل الأعلى والغاية السامية مجردة عن باطل الحياة إذا ما كانت الصراعات صراعات حزبية داخلية .

---

(١) شعر الحرب فى أدب العرب : ٥١ .

(البـاب الثانـــــى)

(شعـر الحرب والفروسية فى أدب بنى أميــة)

تمهيـــــد :

موضوعات شعر الحرب والفروسية ليست جديدة كل الجـدة وليست وليدة هذا العصر ، فقد صور شعراء العرب فى الجاهليـة المعارك الحربية التى دارت بين القبائل ، وسجل شعراء صـــدر الإسلام الأحداث السياسية وما نتج عنها من حروب ومعارك دارت بين المسلمين وبين غيرهـــم .

وموضوعات هذا الشعر ليست مستقلة استقلالا تاما عن بقيـة الأغراض الشعرية ، فقد تكون القصيدة فى موضوع كالمدح أو الهجـاء أو الفخر ، وإذا فتشنا فيها وجدنا أبياتا تدخل فى نطاق الحـرب والفروسية .. وهذا هو طابع الشعر العربى فى كل عصوره ، فمـن النادر أن تجد قصيدة ذات موضوع واحد ولاسيما فى الشعر الغنائـى وهذا لاضير فيه وإنما يكون الحكم على الشاعر بقدر ما يحسن التخلـص وبقدر ما يجيد الانتقال من معنى إلى آخر .

وحين تعرض الدكتور زكى المحاسنى [1] لفن المتنبى فـــى شعر الحرب نجده يوزع هذا الشعر فى الأدب العربى إلى ثلاثـــة أوصاف هى :

١) شعر المديـــح . ٢) شعر الفخـــر .

٣) الشعر العربى الصريح الذى قيل خاصة لوصف الوقائع والمعامع .

---

(١) شعر الحرب فى أدب العرب : ٣٠٧ .

ونحن نقر ماقاله الدكتور المحاسنى ، ونضيف اليه أن هناك موضوعات شعرية أخرى تضمنت شعرا للحرب والفروسية مثل شعر الهجاء والشعر الدينى وموضوعات بكاء الأطلال .. وغير ذلك مما سنوضح فى الموضوعات الشعرية .

* * *

وقد امتلأ العصر بكبريات الأحداث ، ولم تخل فترة فيه من ثورات لوافح أو فتن عارمة أو معارك ضارية . ففى بداية العصر كان قتل عثمان بن عفان ، وقام المطالبون بالثأر له باتهام على بن أبى طالب بأنه وراء هذا الحادث ، وما كان إلا أن أخذ على يدافع عن نفسه فكانت موقعة الجمل التى تمخضت عن فوز على وهزيمة عائشة وجمعها ثم تمرّد معاوية على علىّ ومطالبته بالثأر لعثمان ولمن قتل فى موقعة الجمل ، وتنكر على لكل الذى طلب معاوية . ثم الشيعة وموقعة صفين ولجوء معاوية إلى المكر والحيلة والاحتكام ، وخروج الخوارج على على بسبب قبوله التحكيم ، وقيام هؤلاء بمحاربة على من ناحية ومعاوية من ناحية أخرى . ثم قيام الزبيريين واضطهادهم للشيعة شأنهم شأن الأمويين والخوارج ، ثم استتباب الأمر للأمويين وسلّهم السيوف فى رقاب الخوارج والشيعة والزبيريين ، ثم انقسام الأمويين على أنفسهم وختام دولتهم . كل هذه الأحداث كانت حقلا خصبا للشعراء فأخذوا يصفون الحروب ويهيبون بالأحزاب ، كل يدعو لحزبه ولفريقه ، ويهجم على الأحزاب الأخرى تهديدا ووعيدا .

لأجل ذلك كله رأيت أن أقسم الشعراء باعتبار انتماءاتهم لأن كلا منهم كان يسير في وصفه للفروسية والحرب مسارا يرضى عنه حزبه ويتفق ومبادئه . ولذلك قسمت هذه الدراسة إلى :

١) شعر الحرب والفروسية عند شعراء بني أمية .
٢) شعر الحرب والفروسية عند شعراء الخوارج .
٣) شعر الحرب والفروسية عند شعراء الشيعة .
٤) شعر الحرب والفروسية عند شعراء الزبيريين .

ولعل شعراء بني أمية لم يقصروا شعرهم على السياسة لأنهم تناولوا جميعا فنونا شتى ، على حين أن غيرهم من شعراء الأحزاب الأخرى كشعراء الخوارج مثلا قد أوقفوا شعرهم على نصرة مذهبهم ومايتصل به . بل قل إنهم لم يتعدوا هذا إلى غيره من فنون الشعر الأخرى .

وليس معنى ذلك أن هذا الحزب لم يشهد من الأحداث السياسية مايوفر لشعرائه مجال القول ، فقد اشتجرت فيه الحوادث وصادمتهم الخطوب من كل صوب ، وكانت مهمة الشعراء في كل هذه القلاقل والحروب أن يقولوا شعرا يحملون فيه على خصومهم ، ويمدحون الفاتحين والغازين من بني حزبهم . وقد كان في مجال القول لهم سعة ، فالعراق لايخلو من الفتن والثورات ، وإقليم فارس وثغور الروم ساحة لفتوحاتهم وتوسعاتهم .

ولعلى أرجح أن هذا مرجعه إلى أن شعراء الحزب الأموى كانوا من الكثرة بحيث يمكن أن نصنفهم إلى صنفين أو فريقين :

(١) فريق لم يكونوا قد أشربوا مذاهب الأمويين السياسية وإنما كانت قلوبهم تميل إلى أحزاب أخرى ، ومع ذلك كانوا يصطنعون المودة للأمويين فيتبارون فى ارضاء الخلفاء ويتنافسون فى نيل عطاياهم وكان شعرهم فيهم يتسم بالمبالغة والتزلف والملق (١) .

(٢) شعراء أشربوا المذهب الأموى كما أشرب ابن قيس الرقيات المذهب الزبيرى ، أو كما اعتنق الكميت مذهب الشيعة فهؤلاء الشعراء صدقوا مع بنى أمية فى شعرهم ، فأشادوا بالخلفاء وبالولاة والقواد ، ومن شهد من هؤلاء فتنة أو ثورة أو حروبا كان أحسنهم قولا وأصدقهم وصفا ، وخرج شعره فى الحرب والفروسية وكأنه ثورة غالية العناد جامحة القياد ، وترى فى شعر هؤلاء المعانى التى ذيعت فى شعر الحرب والفروسية ، كوصف الأمويين بسمو النفس وبفضائل الخصال ، ووصف تقواهم وخلافتهم لله فى الأرض ، ثم وصف الشجاعة والتفانى فى الحرب إما ضد المنشقين المتمردين وإما ضد الثغور والبلاد المفتوحة .

(الفصل الأول)

" شعر الحرب والفروسية عند شعراء المديح والهجاء "

كان هذان الغرضان من الاتساع بحيث استحوذا على أكثر

(١) انظر حصر الدكتور الحوفى لهؤلاء الشعراء : أدب السياسة : ١٨٠ ، ١٨١ .

من نصف الشعر المعروف فى هذا العصر ، وذلك لأن السياسة ـ كما سبق أن قلنا ـ كانت هى المحور الذى تدور حوله الحياة فى ذلك الزمن ، وكانت شغل الخلفاء الشاغل ، وعمل رجال دولتهم وأعوانهم ومن يتعصبون لهم ، ومن يناوئونهم ولا يرون رأيهم ، أو لا يرتضـون حكمهم . وكان الشعر يدور محوره حول التنويه بفضل الحزب الذى يدافع عنه الشاعر ويمجده .. ذلك هو شعر المدح ، وكان يغلـب على أصحاب هذا اللون من الشعر أنهم لا يكتفون بمدح الطرف الذى ينحازون إليه ، ويقفون بجانبه ، ويدافعون عنه ، وإنما يتجـاوزون ذلك إلى ذم الخصوم ، أو النيل منهم والزراية بهم .

ولانستطيع القول فى هذا المجال أن هؤلاء الشعراء قدموا فنا خاصا بالحرب والفروسية ، إذ لم يكن من خطتهم أن يفعلوا ذلك وإنما جاء هذا وذاك ضمن مديحهم وهجائهم ، وكان المديح والهجاء عندهم وفقا لعقيدتهم الدينية التى يعملون من أجلها ، وفى إطار الأهداف السياسية التى يسعون لتحقيقها .

وهذا اللون يتضح عند (الأخطل والفرزدق وجرير) ، أشعر أهل العصر الأموى ، وخير من يمثل العصر ، ثم إن شعرهم قـد ذهب ـ أو كاد ـ فى تدبيج قصيدتى المديح والهجاء [1] ، وكانـوا يمدحون أو يهجون بما يتفق وطبيعة الخلفاء ورجال الدولة . وكان رجال الدولة الأموية من قوم لهم أرومة فى الشجاعة ومهارة فى الحرب

---

(١) التطور والتجديد فى الشعر الأموى د . شوقى ضيف : ١٣١ . دار المعارف ط ٦ .

وبراعة فى الكر والفر ، بل إنهم عشقوا الحرب وهاموا بها ، وعــاش بعضهم ممتطيا صهوة جواده ، ممتشقا حسامه ، يقود الجيــوش ويخوض المعامــع .

فإذا كانت هذه طبيعتهم من حب للحرب وعشق للشجاعــة وابتهاج بالمدح وهيام بذم خصومهم ، أدركنا أنه من الطبيعى أن يتضمن الشعر المتصل بهم لونا جديدا يتلاءم مع رغباتهم ويتمشــى وهذه الحياة السياسية المصبوغة بصبغة حربية ، من معارك فيها نصر أحيانا وهزيمة أحيانا أخرى . فإذا كان نصر وصف الشعراء المواقــع والتحام الجيوش واقتحام الصفوف . وإذا ماكانت هزيمة حاول الشعراء أن يخففوا من وطأتها ، وأن يلتمسوا العذر ويهونوا من شأنها .

وقد اقتصر شعر الأخطل فى مستهل عهده به على الهجاء وظل على هذا فترة حتى أسعفته الحياة الحزبية العنيفة ، فأوحت إليه شعرا جديدا أخذ يجد فيه البطولة ويباركها ، ويصف الوقائع ودقائقها ، ولعله أكثر من صاحبيه (الفرزدق وجرير) وصفا للحرب وذكرا للقتال .

وقصائده فى عبد الملك بن مروان تفيض بأوصاف الحــرب والفروسية ، ففيها يهجو الخصوم ، ويعرض بهم فى التقهقر والهرب ويفخر بالعفو عنهم ، كما أنها سجل لتمجيد قومه والإشادة بمآثرهم وهذا شئ طبيعى ، فالأخطل كان لا يزال مأخوذا بهموم قبيلتــه

وقد ابتلاه دهره بالغزوة ، فتوسط الحرب بين قومه بني تغلب وبين قبائل القيسية .

فغي بائيته التي مطلعها (١) :

لعَمْري لقد أسريتُ لا لَيْلَ عاجزٍ
بساهمةِ الخدّين طاويةِ القُرْبِ

نراه يستهلها بهجاء القيسيين ، ثم يمتدح بني أمية ، فهم هامة قريش ، عريقون في الملك ، حلماء ، فتاكون بأعدائهم :

إليك ، أميرَ المؤمنين ، رَحَلْتُها
على الطائر الميمون والمنزل الرَّحْب
إلى مؤمن تَجْلو صفيحةُ وجهه
بلابل تغشى من هُموم ومن كَرْب
مُناخُ ذوي الحاجات ، يستمطرونه
عطاءَ كريمٍ من أسارَى ومن نَهْب
ترى الحَلَقَ الماذِيَّ تجري فُضُولُهُ
على مستَخِفٍّ بالنوائب والحرب
أخوها إذا شالَتْ عَضُوضا سما لها
على كل حال من ذَلول ومن صعب

ويصف مضي الخليفة بالخيل إلى الحرب ، ويعظم ممدوحه من خلال تعظيمه لأصالة خيله ، ويذكر ما قام به من غزو للروم والفرس

(١) شرح ديوان الأخطل : ١٨١ .

وماكان من أثر لهذه الغزوات . يقـــول :

إمام سما بالخيل حتى تقلقلـــت
قلائد فى أعناق مُعْلمة ، حُدْب
شواخص بالأبصار ، من كل مقـرب
أعدّ لهيجا ، أو موافقة الركـب
سو اهم ، قد عاودن كل عظيمـــة
مجلّلة الأشطان ، طيبة الكسب
يعاندن عن صُلْب الطريق من الوجـا
وهن ، على العِلّات ، يَرْدين كالنُكب
إذا كلفوهن التنائى ، لم يـــزل
غرابٌ على عوجاء منهن أو سَقــب
وفى كل عام ، منك للروم غـــزوة
بعيدة آثار السنابك والسّـــرب
يُطَرّحن بالثغر البِخال ، كأنمـــا
يُشقّقن بالأسْلاء أرديَة العَصْـب
بنات ثُغَراب ، لم تُكمّل شهورهـــا
تقلقلن من طول المغاوز والجَذْب
وإن لها يومين : يومٌ اقامـــــة
ويوما تشكى القـضّ من حذر الدّرب
غموس الدجى تنشقّ عن متضـــرم
طَلوبِ الأعادى ، لاسؤوم ولا وَجِب

ثم يعرج ثانية على الأمويين ويشيد بعراقتهم فى الملك فيقول :

قُرومُ أبى العاصى ، غداةَ تخطّمت
دمشقُ بأشباه المعنّأة الجُرْب
يقودون موجا من أمية ، لم يَرِثْ
ديار سُلَيْم بالحجاز ولا النَهْب
ملوكٌ وأحكامٌ وأصحاب نجدة
إذا شوغبوا ، كانوا عليها إلى شغْب
أهلّوا من الشهر الحرام فأصبحوا
موالىَ مُلك ، لا طريفٍ ولا غصب
تذود القنا والخيل تُثنى عليهم
وهن بأيدى المستميتين كالشهب
ولم ترعيّنى مثل مُلْك رأيتُه
أتاك بلا طعن الرماح ، ولا الضرب
ولكن رآك الله موضع حقه
على رغم أعداء وصدّادة كُذْب

والشاعر يبلغ فى الأبيات ذروة العظمة ، وهى تدخل فى صميم الشعر الحربى ؛ إذ ابتدأها بوصف الخليفة بأنه يغزو خصومه ويقهرهم ويفتك بهم ، ولا يفوته أن يصف الخيل لأنها العامل الأول فى القتال ، فيصف سراها وما أصابها من هزال ، ثم يعرج إلى حروبه مع الروم والفرس وما أصابهم من فزع وذعر . ويعود إلى المديح

مرة ثانية فيصف الأمويين بالعراقة فى الملك والنجدة وأنهم أحق بالخلافة من الذين ينازعونهم لما نالوه من فضل .

ولعل ماعند الأخطل من روح القبلية هو الذى جعله يجيد شعر الحرب ويبرز فيه ، وكثيرا ماكان يهجو جريرا وقومه ، ويقرن ذلك دائما بمدح تغلب ويشيد بهرعهم إلى القتال ونصرتهم لبنى قومهم . وكان يتصالف على جرير ويعيره بأنه يربوعى ، لأنهم كانوا أحلافا للقيسية التى كثيرا ماحاربت قوم الأخطل .

وقد خرج الهذيل بن هبيرة التغلبى مرة فى غزوة على بنى رياح بن يربوع فانتهز الأخطل هذه الغزوة ، وأخذ يكيل التهكم لجرير ، ووصف جيش الهذيل وأحلافه وفرسانهم وخيولهم ، يقول[1] :

ولقد سما لكُمُ الهذيل فنالكم ∴ باراب حيث يقسم الأنفالا

فى فيلق يدعو الأراقم لم تكن ∴ فرسانه عُزْلا ولا أكفالا

بالخيل ساهمة الوجوه كأنما ∴ خالطن من عمل الوجيف سلالا

ولقد عطفن على قُدارة عطفة ∴ كرّ المنيح وجُلْن ثَمَّ مجالا

فسقين من عادين كأسا مرة ∴ وأزلن حد بنى الحباب فزالا

يَغْشَيْن جيفة كاهل عرّينها ∴ وابن المهزّم قد تركن مذالا

فقتلن مَنْ حمل السلاح وغيرهم ∴ وتركن فَلَّهم عليك عيالا

ولقد بكى الجحّاف مما أوقعت ∴ بالشَّرْعبيّة ، إذ رأى الأطفالا

---

(١) شرح الديوان : ٣٩١ ، ٣٩٢ .

فانعق بضأنك يا جرير فإنما ... منتك نفسك فى الخلاء ضلالا

تلك هى جولات الأخطل فى شعر الحرب ، وهى ترينا كيف كان قادرا على وصف المعارك وتصوير الحرب فى شعر المديح والهجاء فكان قديرا حين مزج بين هذين الفنين وبين شعر الحرب . ولو حدث وتفرغ الأخطل لشعر الحرب وقال فيه قصائد خالصة كما قال فى المدح والهجاء وغيره لكان قد فاق طبقته .. إلا أنه قد شغل بهجائه مع جرير ، وضيع هو وصاحبه وقتا كبيرا من حياتهما فى هذا الهجاء ، الأمر الذى حال بين الأخطل وبين شعر الحرب والفروسية المطول ، الذى يؤرخ للمعارك ونتائجها ، ويصورها تصويرا صادقا.

وعلى هذه الشاكلة كان جرير فى مديحه وهجائه ، فهو يشيد بالأمويين وسياستهم وكل مايصدر عنهم ، فهم قوم فضلهم الله على الناس إذ اختارهم للخلافة ، ويكرر وصفهم بالعدل ورد المظالم لايمل تكرار هذه النغمة فى مدائحه .

ومن حين لحين يعرض لخصومهم فيصفهم بأنهم ضلوا السبيل ويعدهم خارجين عن الدين ، ويظل يشيد بما يصدر من الأمويين تجاه هؤلاء من سفك الدماء . وقد وضعته الحوادث موضع النقيض من الأخطل ، لأن قيسا قبيلة جرير وتغلب قبيلة الأخطل كانتا على طرفى نقيض فى السياسة ، وكثيرا ما استل رجال القبيلتين السيوف فى معارك حربية ضارية .

وجرير أبرع فى شعر الحرب من الأخطل ، فهو قوى النفس

شجاع الهمة ، وله أبيات شعرية كثيرة فى الحماسة ، ولا غرو فنفسه كانت تعلو به إلى مشارف الفرسان والأبطال . فهو يفخر بسيفه فيقول (١) :

جرئ الجَنان لا أُهَالُ من الردى
إذا ما جعلتُ السيفَ من عن شماليا

وقد ظهر فيه هذا الشعور حين قال الحجاج له وللفرزدق وهو فى قصره بجزيرة البصرة : ائتيانى فى لباس آبائكما فى الجاهلية فلبس الفرزدق الديباج والخز وقعد فى قبة . وشاور جرير دهاة بنى يربوع فقالوا له : مالباس آبائنا إلا الحديد ، فلبس جرير درعا وتقلد سيفا وأخذ رمحا وركب فرسا لعباد بن الحصين وأقبل فى أربعين فارسا من بنى يربوع ، وجاء الفرزدق فى هيئته فقال جرير فى هذا (٢) :

لبستُ سلاحى والفرزدقُ لُعْبَةٌ
عليه وِشاحا كُرّجٍ وجلاجلُهْ
أعِدُّوا مع الحلى المَلَابَ فإنما
جرير لكم بعلٌ وأنتم حلائِلُه

وكثيرا ماكان يذكر أمجاد قومه ، وكأنه يريد أن يشحذ

(١) شرح الديوان : ٧١٠ .
(٢) الأغانى : ٢٨٢٢/٨ . دار الشعب ط ٢ .

بطولته التى يحسها فى نفسه . يقـــول [1] :

ويوم بنى وحة قد لحقنـــــا
وذُدْنا يوم ذى نَجَب كلابـــــا
ويوم الحوفزانِ ، فأين تـــيمٌ
فتُدْعَى يوم ذلك أو تُجابــــــا

وكان شعره فى المدح ممزوجا بوصف الحرب وذكر السلاح والأيام وقد فاض هذا الشعر فروسية فى وصف الخيل وهجماتها واعتصام الفرسان بغاراتها ، ويظل جرير مولعا بتصوير الفروسية وبما تثيره حروب قومه مع التغلبيين .

وقد نظم قصيدة فى هجاء الأخطل ، أخذ يفاخر فيها بقومه فقـــال [2] :

ونعرف حق النازلين ولم تـــزل
فوارسنا يحمون قاصية السَّـــرْب
على مُقْرَباتٍ هن معقِلُ مَنْ جـــنى
وَسَمٌّ العِدَى والمُنجيات من الكـــرب
ألا رُبَّ جبارٍ وطئن جبينـــــه
صريعا ونَهْبٍ قد حوين إلى نهب

---

(1) شرح الديوان : ٤٣ .
(2) شرح الديوان : ٨٢ .

ثم يهجو الأخطل ويعيره بانتصار القيسيين على قومه فيقول [١] :

وقد أوردتْ قيسٌ عليك وخِنْدِفٌ
فوارس هدّمن الحياض التى تجبى
ستعلمُ مايغنى الصليب إذا غدَتْ
كتائبُ قيسٍ كالمسَنَّأة الجُرّب

وكثيرا مايعير الأخطل وقومه بما يصيبهم من خذلان فى الحروب كأكبر سبة يمكن أن يلصقها به وبقومه ، ولم يكن ليترك معركة (يوم البشر) التى دارت على الأخطل وقومه ، فكان النصر لجرير ، وكانت الهزيمة للأخطل وقومه ، يقول واصفا تلك الموقعة [٢] :

بكى دوبلٌ ، لايرقأُ الله دمعه
ألا إنما يبكى من الذل دوبل
جزعتَ ابن ذات القَلس لما تداركت
من الحرب أنياب عليك وكلكل
فإنك والجحّاف يوم تحضه
أردتَ بذاك المكث والوردُ أعجل
سرى نحوكم ليل كأن نجومه
قناديلَ فيهن الذُبال المفتّل
فما انشق ضوءُ الصبح حتى تعرفوا
كراديس يهديهن ورد محجّلُ

---

(١) المصدر نفسه : ٨٣ ، ٨٤ . } (شرح الديوان) .
(٢) المصدر نفسه : ٥٤٨ ، ٥٤٩ . }

وقد قتل الجحاف أولاد نسوة
يسوق ابنُ خلّاس بهن وعزهَـــلُ
عُقابُ المنايا تستديرُ عليهم
وشُعْثُ النواصي لُجْمُهُنّ تصلصلُ
بدجلة إن كرّوا فقيسٌ وراءَهم
صفوفاً ، وإن راموا المخاضةَ أوحلوا
وما زالت القتلى تمور دماؤهــا
بدجلةَ حتى ماءُ دجلةَ أشكلُ

....

لنا الفضل في الدنيا وأنفُك راغمٌ
ونحن لكم يوم القيامة أفضــلُ

أما الفرزدق فمع تعصبه الشديد لآل البيت وتشيعه لهم [1] إلا أنه كان كثير المدح للأمويين ، واعترف في مدحه لهم بحقهم في الخلافة ، ولعل حبه للتكسب وخوفه من بطشهم حملاه على أن يظهر في مدحه لهم خلاف ما يبطن .

ومع أنه لم يحارب ولم يخض أحداث الحرب ، وكان يخشى الحجاج ويحاذر من جبروته في قوله : [2]

أخافُ من الحجاج سَوْرةَ مُخدِر
ضواربَ بالأعناقِ منه خــوادِرُهْ

(١) انظر مقدمة الديوان : ٥ ، ٦ ، دار بيروت .
(٢) الديوان : ١/٢٥١ .

إلا أنه لم يقصر فى شعره عن وصف بطولة آبائه وأجداده ، وكان قائدا فى هجائه وهو يدافع عن قبيلته . وفى قصيدة له فى الهجاء نراه يتطرق إلى وصف المعارك التى دارت بين الحجاج وبين جنود عبد الرحمن بن الأشعث [1] ، والتى كانت الهزيمة فى مبدئها للحجاج حتى تغير الحال فى آخر المعركة . يقول : [2] واصفا المعركة ومشيدا بفروسية الحجاج وتأييده من السماء شأنه شأن أهل بدر :

دعَوا ودعا الحجاج والخيل بينها
مدى النبل فى سامى العَجاجة أكدرا
إلى باعث الموتى ليُنزل نصره
فأنزل للحجاج نصرا مؤزرا
ملائكة ، من يجعل الله نصرهم
له يك أعلى فى القتال وأصبرا
فلما رأى أهل النفاق سلاحهم
وسيماهم كانوا نَعاما مُنفّرا
كأن صفيح الهند فوق رؤوسهم
مصابيحُ ليل لايبالين مِغْفَرا
بأيدى رجالٍ يمنع الله دينهم
بأصدقَ من أهل العراق وأصبرا
كأنّ على دير الجماجم منهُمُ
حصائدَ أو أعجازَ نخل تقعّرا

(١) انظر الكامل لابن الأثير : ٤/٤٦٧ . بيروت .
(٢) الديوان : ١/٢٤١ ، ٢٤٢ .

لقيتمْ مع الحجاج قوما أعـــزة
غِلاظا على من كان فى الدين أجـوَرَا
بهم يوم بدر أيد الله نصـــره
وسَوّى من القتلى الرَّكىّ المُعَـــوَّرَا (١)
جنودا دعا الحجاج حين أعانـــه
بهم ، إذا دعا ربَّ العباد لينصـرا

* * *

وهكذا رأينا كيف كان شعر الحرب والفروسية عند هؤلاء الأقطاب الثلاثة وسيلة لا غاية ، ومع أن العصر امتلأ بالحروب والفتن إلا أنهـم اكتفوا بأبيات يصفون فيها هذه الحروب وتلك الفتن ، ولم يأت عندهم شعر حربى . فى مطولات أو ملاحم ، ولعل قلة حملهم للســلاح وقلة اشتهارهم بشعر الحرب والفروسية كشأن الشعراء الفرسان ، ثم التهاجى الذى حدث بينهم والذى شغلهم وقتا طويلا .. لعـل هذا كله كان سبب تقصيرهم فى شعر الحرب والفروسية ، ولــو أن هؤلاء قد بذلوا من أنفسهم ، ووفروا من وقتهم قدرا كافيا لشعـر الحرب لأعطونا ــ لما لديهم من نزعة قبلية ودعوى عصبية ــ ملاحم أو شبه ملاحم ، ولما اكتفوا بتلك الأبيات التى يصفون فيها لمحات من الحرب وأحداثهـا .

---

(١) الـركى : الآبار . المعور : من عورت البئر إذا كبسهــا بالتراب حتى ينضب ماؤهــا .

خصائص شعر الحرب والفروسية عند شعراء المديح والهجاء :

١) يلاحظ على شعر الحرب والفروسية عند هؤلاء الشعراء أنهم اتخذوه وسيلة لا غاية ، فالشعر عندهم أداة للتكسب والاحتراف ووسيلة لذم المعارضين المناوئين ، وقد أدى ذلك إلى انصرافهم عن المهمة الأساسية لهذا الشعر ، وأدى من ناحية أخرى إلى تشابه شخصياتهم الشعرية .

٢) لعل عدم اشتهار هؤلاء الشعراء بالشجاعة والبطولة والفروسية كشأن الشعراء الفرسان .. لعل هذا هو الذى جعل شعرهم يخرج فى هذا الفن دون شعر الخوارج ، ومن النادر أن نجد فى شعرهم تجربة حية للحرب تخلو من التكلف والرياء .

٣) والقصيدة التى يصفون فيها الحرب أو الفروسية لاتكاد تخالف القصيدة الجاهلية لا فى الاستهلال[1] ولا فى تعدد الفنون والأغراض ، فالشاعر منهم يبدأ قصيدته بالغزل ، ويأتى فيها بأكثر من غرض شعرى ، ويدور حول أكثر من معنى .

٤) ولما كان هؤلاء الشعراء قد عاشوا فى زمن سادت فيه النزعة القبلية والدعوى العصبية ، وقد قام شعرهم فى المدح والهجاء بإثارة هذه النزعة .. ولما كان كذلك رأينا شعرهم فى الحرب والفروسية يصبغ بتلك الصبغة .

---

(١) انظر مقدمة القصيدة العربية فى العصر الأموى . حسين عطوان ١٢ : دار المعارف ١٩٧٤ .

٥) ولابد أن نذكر أن شعر الحرب عند هؤلاء كان يتسم بقوة الجرس وصلابة العبارة ، وبالقوافي الرائعة الطنانة التي تتناسب والحرب ، وشيوع الأوصاف الحربية مثل وصف الجيوش بالجرأة والإقدام والبأس وحب القتال .. ووصف القائد والأمير بأنه ناصر الدين وحامي الإسلام ومؤيد بالنصر من الله ، وبالعفو عند المقدرة ووصف صورة العدو بالجبن والخور والخزي والهوان والاستسلام وغير ذلك من الأوصاف المستفيضة الذكر في أبياتهم في الحرب .



(الفصـــل الثانـــى)

" شعر الحرب الداخلية والفتوحات الخارجيـــة "

يتناول الشعر هنا تلك الحروب والقلاقل التى حدثت فـى أشتات الأمصار الإسلامية فى الدولة الأموية ، أو حدثت بعيدة عنها نتيجة للفتوحات الخارجية ، كتلك التى قام بها يزيد بن المهلب وأبو أيوب الأنصـارى .

وقد صدق كثير من الشعراء فـى وصف حروب بنى أمية وتصوير معاركهم ، ومدحوهم بصفات الشجاعة والبطولة وبسطة السلطـان وكان أحسن هؤلاء الشعراء وصفا وأروعهم قولا من خاض تلك المعامع وكان من بين المقاتلين .

(١) الحروب الداخليـــة :

وقد شهدت الدولة الأموية حروبا عديدة مع الأحزاب الـتى تعارضها ، فكانت من ثم مهمة الشعراء أن يقولوا شعرا يمدحون فيه جنود وقواد بنى أمية ، ويذمون المتمردين من أعدائهم ويحملون عليهـم .

ومن الشعراء المخلصين لبنى أميه (كعب الأشقرى الأزدى)[١]

---

(١) الأغانى : ١٤/١٥٠٥ ، دار الشعب .

فقد كان من الشعراء الفرسان ، واحتمل فى حروب بنى أمية مالا يحتمله غيره ، وله فى المهلب بن أبى صفرة ووصف حروبه قصائد كثيرة . وحين تغلب المهلب على الخوارج أرسل بكعب ليبشر الحجاج بانتصاره على الأزارقة ، فأنشده قصيدة حماسية كبيرة وصف فيها المعارك والبطولات التى دارت فيها . يقول منها :[1]

يا حفصَ إنّى عَدانى عنكم السفرُ
وقد سَهِرتُ فآذى عينىَ السهرُ

لولا المهلّبُ مازرنا بلادهم
مادامت الأرض فيها الماء والشجر

فمايُجاوز باب الجسْر من أحد
قد عضت الحرب أهل المصر فانجحروا

خبّوا كمينهم بالسفح إذ نزلوا
بكازرّون فما عزّوا وما نصروا

باتت كتائبنا تَرْدِى مُسَوّمة
حول المهلب حتى نوّر القمر

هناك ولّوا خزايا بعد ما هُزِموا
وحال دونهم الأنهارُ والجُدُر

وهذا هو الشاعر عبد الله بن خارجة (الأعشى ربيعة)[2] وقد فاض شعره حماسة أموية ، وقد خاطب الحجاج بعد حرب الجماجم

(١) الأغانى : ١٤/٥١٥١ — ٥١٥٣ .
(٢) انظر الأغانى : ٢٠/٦٩٠٩ .

فقال[1] : " أصلح الله الأمير ، لابراءة من ذنب ، ولا ادعاء على الله فى عصمة لأحد من المصرين ، قد والله اجتهدوا جميعا فى قتالك ، فأبى الله إلا نصرك ، وذلك أنهم جزعوا وصبرت ، وكفروا وشكرت ، وعفوت إذ قدرت ، فوسعهم عفو الله وعفوك فنجوا ، فلولا ذلك لبادوا وهلكوا " .

وقد بلغ الحجاج أن الأعشى هذا قد رثى عبد الله بن الجارود فغضب عليه ، فقال الأعشى شعرا حماسيا يعتذر فيه للحجاج يقول فيه :[2]

أبيتُ كأنى من حذار ابن يوسف
طريدُ دمٍ ضاقت عليك المسالك
ولو غيرُ حجاج أراد ظُلامتى
حَمَتْنى من الضيم السيوفُ البواتك
وفتيانُ صدْق من ربيعة قُصْرَةً
إذا اختلفت يوم اللقاء النيازك
يُحَامُون عن أحسابهم بسيوفهم
وأرباحهم واليوم أسْودُ حالك

أما الشاعر عبد الرحمن بن الحارث الهمدانى (أعشى همدان)[3] فقد تعصب للأمويين ، وبكى شجاعة قتلاهم ، ومع

---

(١) الأغانى : ٢٠/٦٩١٣ .
(٢) الأغانى : ٢٠/٦٩١٤ .
(٣) الأغانى : ٦/٢١١٣ .

ذلك فلم يخل من لومهم وعتابهم حين وصف وقعة (عين الوردة) .
وقد نفر مع النافرين وشارك ابن الأشعث فى حروب مع الحجاج حتى تمكن الحجاج من أسره ، وأخذ يذكره بما قاله ضده ، إلا أن الشاعر دافع عن نفسه فقال للحجاج بل أنا القائل أيها الأمير :[1]

أبى الله إلا أن يتم نـــــوره
ويطفئ نار الفاسقين فتخمـــــدا
ويُنزل ذلا بالعراق وأهلـــه
كما نقضوا العهد الوثيق المؤكـدا
وما لبث الحجاج أن سلَّ سيفـه
علينا فولى جمعنا وتبـــــددا
وما زاحف الحجاج إلا رأيتــــه
حُساماً ملقى للحروب مُعَــــوَّدا
فكيف رأيت الله فرق جمعهـــــم
ومزقهم عُرْضَ البلاد وشـــــردا
بما نكثوا من بيعة بعد بيعـــة
إذا ضَمِنوها اليوم خاسوا بها غدا
ولما دَلَفْنا لابن يوسف ضِلّــــة
وأبرق منا العارضان وأرعـــــدا
فصادمنا الحجاج دون صفوفنـــا
كفاحا ولم يضرب لذلك موعـــــدا

---

(١) الأغانى : ٦/٢١٤٠ .

بجند أمير المؤمنين وخيله
وسلطانه أمسى مُعَانًا مؤيدا
ليهنئ أميرَ المؤمنين ظهورُه
على أمة كانوا بُغاةً وحُسَّدا
وجدنا بنى مروان خير أئمة
وأعظم هذا الخلق حلما وسؤددا
وخير قريش فى قريش أرُومة
وأكرمهم إلا النبىَّ محمدا
إذا ما تدبَّرنا عواقب أمرنا
وجدنا أمير المؤمنين المُسَدَّدا
سيغلب قوما غالبوا الله جهرة
وان كايدون كان أقوى وأكيدا

* * *

(٢) الحروب الخارجية :

ولم يقف جهاد الأمويين عند حد مقاومة المناوئين فحسب بل كانت لهم فتوحات خارجية ، بلغت فى عهدهم إلى حد الصين وقد أحسنت جيوشهم الحرب فى تلك الفتوحات ، وأظهرت فيها كفاءة وبسالة ، وسقط من أبطالهم فى هذه الحروب كثير .

وقد قاد يزيد بن المهلب ومعه أولاده فتوحات الدولة فى بلاد فارس حتى بلغوا سمرقند ، وقد شاركهم فى هذه المعارك

الشاعر الفارسي (ثابت قطنة)[1] وقد أبلى بلاء حسنا في هـــذه المعارك ، وكان يستنهض عزائم المقاتلين حين يبكي قتلاهم .

وحين قتل المفضل بن المهلب دخل على أخته هند والنـــاس حولها جلوس يعزونها ، فأنشدهـــا[2] :

يا هنـــدُ كيف بنصْب باتَ يُبْكيـــني
وعائرٍ في سوادِ الليل يُؤذيـــــني
إني تذكرت قتلى لو شهدتهـــم
في حومة الموت لم يَصْلَوْا بها دونـي
لا خير في العيش إن لم أجْنِ بعدهم
حَرْباً تبيء بهم قَتْلى فيشفونـــي

فقالت له هند : اجلس يا ثابت ، فقد قضيت الحق ، وما من المنية بد ، وكم من ميتة ميت أشرف من حياة حي ، وليست المصيبـة في قتل من استشهد ذابا عن دينه ، مطيعا لربه ، وإنما المصيبـة فيمن قلت بصيرته ، وخمل ذكره بعد موته ، وأرجو ألا يكون المفضـــل عند الله خاملا . فيقال إنه ما عزى يومئذ بأحسن من كلامها[3] .

وقد وصف إحدى حروب الدولة في هذه البقاع ووصف فدائيـة المحاربين واستبسالهم فقال :[4]

---

(١) الأغاني : ١٤/٥١٢٩ .
(٢) الأغاني : ١٤/٥١٤١ ، ٥١٤٢ .
(٣) الأغاني : ١٤/٥١٤٢ .
(٤) شعر الحرب في أدب العرب : ١٣١ .

فدت نفسي فوارس من تميم
غداة الروع في هنك المقام
فلولا الله ليس له شريك
وضربي قونس الملك الهمام
إذا لسعت نساء بني دثار
أمام الترك بادية الخدام

* * *

ومن الشعراء من اكتفى بذكر هذه الحروب في معرض الموضوعات الشعرية الأخرى . فهذا هو الأخطل يقول في مدحه للحجاج ابن يوسف [(١)] :

وبنات فارس كل يوم تُصْطَفَى
يَعْلُونَهُنَّ وما لهن مُهُورُ

كذلك أمعن العرب حربا في غزو ثغور الروم [(٢)] ، ولم يقصر الشعراء في القول في هذه الحروب ، فقد تباهوا بها وتفاخروا بالقائمين عليها ، وأخذوا يمجدون ما كان للعرب فيها من بطولات وأمجاد .

فهذا هو الأخطل ينظم قصيدة في مدح الوليد بن عبد الملك لم يلبث أن يمدحه فيها بغزواته للروم التي اقتحم فيها عليهم الجبال

(١) الديوان : ١٩٥ .
(٢) انظر فتوح البلدان للبلاذري ص ١٧٢ ط الشركة العربية بمصر ط ١ سنة ١٩٠١ م .

وكم أشغل فيها من نار ، وأثار من غبار :(١)

وما بَلَغَتْ خيل امرئٍ كان قبلـه
بحيث انتهتْ آثـارُهُ ومحارِبُـهْ
وتضحى جبال الروم غُبراً فِجاجُهـا
بما أشعلت غاراتـه وكتائِبُـهْ

وأمير المؤمنين لايبرح يغزو بخيله بلاد الروم ، ويقتحم بهـا السبل النائية البعيدة ، حيث تطرح أولادها وتجهض بها مـن شدة مايصيبها من الإعياء :(٢)

وفي كل عام منك للروم غـزوةٌ
بعيدةُ آثار السنابك والسَّرْب
يُطرِّحن بالثغر السِّخـال كأنمـا
يُشقِّقن بالأسلاء أردية العَصْـب
بنات غرابٍ لم تُكمِّلْ شهورُهـا
تقلقلْن من طول المغاوز والجَذْب
وإن لها يومين : يـومَ إقامـةٍ
ويوما تَشكّى القضَّ من حَذَر الدَّرب

وقد أشار الشاعر (نابغة بني شيبان)(٣) إلى حروب العرب الدامية مع الروم . ففي مدحه للوليد بن عبد الملك نراه يصف حصار

---

(١) ديوان الأخطل :٢٩٥ (٢) ديوان الأخطل : ١٨٦، ١٨٧.
(٣) الأغاني : ٧/٢٥٤٦ .

العرب للمدن الرومية فيقول :(١)

أخزى (طرندة) منه وابل بـرد (٢)
وعسكر لم تقده العزّل الجـــوف

مازال (مسلمة) الميمون يحصرها
وركنها بثقال الصخر مقــــذوف

وقد أحاطت بها أبطال ذى لجب
كما أحاط برأس النخلة الليـــف

حتى علوا سورها من كل ناحيـــة
وحان من كان فيها فهو ملهـــوف

فأهلها بين مقتول ومستلـــب
ومنهم موثق فى القـد مكتـــوف

* * *

وإنه لواضح حين ننظر بالنقد إلى هذا الشعر الذى قالـه الشعراء فى الحروب الخارجية أن أكثره أدنى منزلة من الناحية الفنية من الشعر الذى قيل فى الفتن والحروب الداخلية مع الأحـــزاب الأخرى ، ولعل الشعراء على عذر فى هذا ، فهم لم يشهدوا هذه الحروب شهودهم غيرها مما أجادوا وصفه وذكر وقائعه ، على أن منهم من أجاد وصف هذه الحروب وهو الشاعر ثابت قطنة ، ولعل حضـوره لهذه الحروب ومشاهدته لها كان السبب فى ذلك .

---

(١) الديوان : ٥١ . ط دار الكتب المصرية ١٩٣٢ م .
(٢) طرنـدة : بلدة فى بلاد الروم .

وهذا الشعر تغلب عليه ناحية الحماسة ، وهى نغمة تصف الشعر فى مجمله بأنه شعر حربى " وإن كان سلطان التاريخ قد طغى على هذا الشعر أكثر من طغيان السلطان الدينى .

xxxxxxxxxxxxxxx

(الفصل الثالث)

" الفروسية فى شعر العصبيات القبلية "

إذا كان الأمويون قد سلكوا فى سياستهم مسلكا يبعث العصبية القبلية من مراقدها ، فلاشك أن كثيرا من القبائل كانت أشد تلهفا إلى بعث تلك العصبية لالشىء إلا لتشفى أنفسها مما بها من غل وحقد .

وإذا كان الأمويين قد استنصروا بالعصبية على خصومهم ، فإنهم مالبثوا إلا قليلا حتى استنصر بها بعض الأمويين على بعض ، مما أدى إلى اشتعال تلك العصبية فى البوادى والحواضر ، وتفاقم خطرها ، وتجاوز حدود العصبية فى التقريب والإيثار أو الإبعاد والحرمان إلى حمل السيوف وسفك الدماء .

وفى هذا المجتمع اشتعلت المهاجاة بين شعراء القبائل المتعادية ، واستمرت النقائض ، وتكاثر الشعراء بالمفاخرات فأشادوا بقومهم ومناقبهم من فروسية وبأس ونجدة وغيرذلك من ألوان الفخر ، بل جاوزا ذلك كله حتى سجلوا الوقائع القبلية .

(من شعراء الفروسية القبليـــة)

(١) النابغـة الشيبانـــى

شاعر بدوى [١] من شعراء الدولة الأموية ، وكان يفد إلـى خلفاء بنى أمية فيمدحهم ويجزلون له العطاء ، وكان نصرانيـــا يحلف بالإنجيل والرهبان وبالأيمان التى يحلف بها النصارى . ولما هم عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز وتولية ابنه الوليد العهد كـــان النابغة منقطعا إلى عبد الملك مدّاحا لــه .

وقد تغالى فى مدحه ليزيد بن عبد الملك . ووفد مرة إلـى هشام بن عبد الملك فلما رآه قال له : ألست القائل :

هشام والوليد وكل نفس ∴ تريد لك الفناء لك الفداء

أخرجوه عنى ! والله لا يرزؤنى شيئا أبدا وحرمه .

أما فخره بحماسة قومه ، فهو أطوع له من التمدح بحماســة وفروسية بنى أمية ، وهو الدليل الواضح على أن فروسيته كانت تتمثل أكثر ما تتمثل فى نزعته القبليـــة .

يقول الأصبهانى [٢] : غنى أبو كامل مولى الوليد بن زيـــد يوما بحضرة الوليـد :

إمدَحِ الكأسَ ومن أعملها ∴ واهجُ قوما قتلونا بالعطشْ

---

(١) رجعنا فى هذه الترجمة إلى الأغانى : ٧/٢٥٤٦ .
(٢) الأغانى : ٧/٢٥٥٠ .

فسأل عن قائل هذا الشعر فقيل : نابغة بنى شيبان ، فأمر بإحضاره فأحضر ، فاستنشده القصيدة فأنشده إياها ، وظن أن فيها مدحا له فإذا هو يفتخر بقومه ويمدحهم : فقال له الوليد : لو سعد جدك لكانت مديحا فينا لا فى بنى شيبان ، ولسنا نخليك على ذلك من حظ ، ووصله وانصرف .

ومن هذه القصيـــدة :

وبنو شيبان حولى عُصَبٌ ∴ منهم غُلْبٌ وليست بالقَمِـــش
وردوا المجدَ وكانوا أهله ∴ فرووا والجود عاف لم يَنِـــش
وترى الجُرْدَ لدى أبياتهم ∴ أرِنات بين صلصال وجُـــش
ليس فى الأموال منها هُجْنَةٌ ∴ وَضَح البُلْقِ ولا عيب الـــبَرَش
فبها يحوون أموال العدا ∴ ويصيدون عليها كل وحـــش
دَمِيَتْ أكفالها من طعنهم ∴ بالرُّدَيْنِيات والخيل النُّجُـــش
تُنْهِل الخَطِّىّ من أعدائنا ∴ ثم تَفْرى الهام إن لم نفـــترش
فإذا العِيسُ من المحل غَدَتْ ∴ وهى فى أعينها مثلُ العَمَـــش
حُسَّرا الأوبا رما لَقِيَـــتْ ∴ من سحاب جاد عنها لم يُرِش
ذاك قولى وثنائى وهُـــمُ ∴ أهل ودّى خالصا فى غير غشّ
فسلوا شيبان إن فارقتهم ∴ يوم يمشون إلى قبرى بنعـــش
هل غَشِينا مَحْرَماً فى قومنا ∴ أو جَزَينا جازيا فُحْشا بفحش

وهكذا تجلت العصبية القبلية فى شعر هذا الشاعر ، وقـــد عبر عنها بنماذج رائعة من الفروسية ، وأرى شعره أقوى دليل علــى

شعر الفروسية الذى سكبه على قومه وقبيلته .

(٢) الشاعر القُطَامى (١)

وهناك شاعر آخر يعد شعره مثالا للفروسية القبلية وهو الشاعر عمر بن شييم التغلبى ، وهو يعد مثالا واضحا لشعراء الفروسية القبلية ، وشعره أصدق دليل على شعر الحرب الذى سكبه صاحبه على قومه ، فلم يجعل لغيرهم نصيبا فى شرفه ، وقد ذهب بعمود هذا الضرب من الشعر الأموى (٢) .

وهو شاعر خامل الذكر ، كان نصرانيا ثم أسلم ، يغلب عليه لقب القطامى . قال عبد الملك بن مروان للأخطل : يا أخطل تحب أن لك بشعرك شعر شاعر من العرب ؟ قال اللهم لا ، إلا شاعرا منا مُغْدَف القِناع ، خامل الذكر ، حديث السن ، إن يكن فى أحد خير فسيكون فيه ، ولوددت أنى سبقته إلى قوله :

يَقْتُلْننا بحديث ليس يعلمه ∴ من يتّقين ولا مكْنونُه بادِى
فهن يَنْبِذن من قول يُصبْنَ به ∴ مواقع الماء من ذى الغُلّة الصادى

وهو أول من لقب صريع الغوانى بقوله :

صريع غوان راقهن ورقنه .. لدن شب حتى شاب سود الذوائب

---

(١) رجعنا فى هذه الترجمة إلى الأغانى : ٩٤٥٧/٢٨ .
(٢) شعر الحرب فى أدب العرب : ١١١ .

وقد جرت حروب بين قوم الشاعر وبين القيسيين ، وشهد كثيرا من هذه الحروب ، ولعل هذا هو السبب فى وفرة شعره القبلى ، ولعله السبب فى وفرة قسط كبير من شعره الحربى فيما قال من شعر .

وخير مايمثل ذلك قصيدته العينية التى قالها فى مدح زفر بن الحارث بعد أن فك أسره وخلى سبيله ، فقد أشاد فى هذه القصيدة ببنى قومه بطولة وشجاعة وبأسا فى الحروب ، ولم يستطع أن يخفف تلك العنصرية التى تسرى فى دمه فقال :(١)

فأصبح سيلُ ذلك قد ترقّى ٠٠ إلى من كان منزله يَفاعَا
فلا تَبْعَد دماءُ بنى نِزار ٠٠ ولا تَقرر عُيونُك يا قُضاعا

وقد ابتلى بالحرب بين قومه بنى تغلب وبين قيس عيلان ولولا ذلك لما عانى الأسر ، ولما وقع أسيرا بيد زفر بن الحارث ، ولما احتل ذكر الحرب والسلاح والفروسية شطرا كبيرا من شعره .

ومع تنويهه بزفر وصنيعه معه إلا أنه — لتأصل روح القبلية فى نفسه ولصدق بلائه وفروسيته — بعث قصيدة لزفر أخذ يمن عليه فى ثناياها ، ويظهر زهوه بقبيلته وبفرسانها ، يقول :(٢)

من مُبلغٌ زُفَرَ القيسىَّ مِدْحَتَه
من القُطامى قولا غيرَ إفناد

---

(١) الأغانى : ٢٨/٩٤٨٢ .(٢) الأغانى : ٢٨/٩٤٨٥،٩٤٨٦ .

إني وإن كان قومي ليس بينهمُ
وبين قومك إلا ضربةُ الهادي

مُثْنٍ عليك بما استبقيت معرفتي
وقد تعرض مني مقتلٌ بادي

فلن أُثيبك بالنعماء مَشْتمةً
ولن أبدل إحسانا بإفساد

فإن هجوتُك ماتمت مُكارمتي
وإن مدحت فقد أحسنت إصفادي

ومانسيت مقام الورد تحبسه
بيني وبين خفيف الغابة الغادي

لولا كتائبُ من عمرو نصولُ بها
أُرديت يا خيرَ من يندو له النادي

إذ لاترى العينُ إلا كُلَّ سَلْهَبةٍ
وسابحٍ مثلِ سيد الرّدْهة العادي

إذا الفوارسُ من قيس بشِكَّتهم
حولي شُهودٌ وماقومي بشُهَّاد

إذ يعتريك رجالٌ يسألون دمي
ولو أطعتهمُ أبكيتَ عُوّادي

فقد عَصيتهمُ والحربُ مقبلةٌ
لابل قَدَحْتَ زِنادا غير صَلّاد

—————

(البـــاب الثالـــــث)

XXXXXXXXXXXXX

" شعر الحرب والفروسية فى أدب الأحزاب المعارضة لبنى أميـة "

الفصـــل الأول : شعر الحرب والفروسية عند الخوارج :

من يتتبع نشأة شعراء الخوارج ، ويتعرف على حياتهـــم العامة والخاصة يدرك للوهلة الأولى أنهم لم يعيشوا حياة هادئـة مستقرة ، وهم من جهتهم لم يكن يعنيهم من هذا الأمر شئ ، فهم دعاة حرب وطلاب موت ليس غير ، لأن حياتهم سلسلة من الحروب المتواصلة ، تراهم مرة متجمعين منتصرين ، ومرة مشتتين منهزمـين ولم يعرفوا فى حال الهزيمة صغارا ولا ذلا أو استسلامـــا .

وقد طبعت تلك العيشة شعرهم بطابع خاص يميزه عن شعر الفرق السياسية الأخرى ، فهو شعر ثوار ، هم أعرف بفنون الحرب من غيرهم ، ومن ثم كان شعرهم فى جملته حماسياً ، وهى حماسة لا تحركها العصبيات القديمة ، وإنما تحركها عقيدتهم التى رأوا أن يجاهدوا فى سبيلها مخلصين ، أو أن يموتوا غير آبهين بالحيـــاة الدنيـــــا .

فالموت أمنية كل واحد منهم ، وهم يستعذبونه ابتغـــــاء ثواب الله ورضوانه . يقول قطرى بن الفجاءة (١) :

---

(١) شعر الخوارج : ١١١ .

إلى كم تغاريني السيوفُ ولا أرى ∴ مُغَاراتها تدعو إلىّ حماميا
أقارع عن دار الخلود ولا أرى ∴ بقاء على حال لمن ليس باقيا
ولو قرّب الموتَ القراعُ لقد أنى ∴ لموتى أنْ يدنو لطول قراعيا

وقد اتخذ الخوارج من عملية التحكيم ذريعة لإعلان الثورة المسلحة على الإمام على ، وظل صوت التحكيم يتردد فى شعر شعرائهم ، فكانوا يشحذون به حماس جنودهم ، ويلهبون عواطفهم فى كل موقعة وعند كل لقاء ، حتى أصبح شعر الحرب تتمة طبيعية لما عرفوا به من شراية وخروج .

ومع أن الخوارج كانوا أوضح فى شعر الحرب والفروسية من الأمويين ، إلا أننا لانستطيع الزعم بأنهم تناولوا مطولات محددة فى الحرب واضحة الأهداف محددة المعالم . وكل مايمكن قوله عنهم أن غزارة الشعر الحربى عندهم تلفت النظر ، وسأحاول تلمس أبرز موضوعات شعر الحرب والفروسية عندهم . وهى كالآتى :

(١) وصف الحرب والحنين إليها :

شعر الحرب والفروسية يعد لونا من ألوان الوصف ، بل إن الوصف هو الفن الأول الذى يندرج تحته شطر لابأس به من شعر الحرب والفروسية . وقد وصف شعراء الخوارج المعارك وتحدثوا عن نتائجها ، وتناولوا وصف جنود الخوارج كجماعة قتال وأبطال نزال .

ويكثر الحديث عن جماعة الخوارج في مجال وصف الحرب فالخوارج قوم مرابطون ، تراهم في هجومهم صفا واحدا كالبنيان المرصوص ، وأجمل وصف لثباتهم عند اللقاء قول مرداس بن أدية فيهم [1] :

فلسنا إذا جَمَّتْ جموع عدونا
وجاءوا إلينا مثل طامية البحر
نكف إذا جاشت إلينا بحورُهُمْ
ولا بمهابيب نحيدُ عن البُتّر
ولكننا نلقى القنا بنحورنا
وبالهام نلقى كلَّ أبيض ذي أثر
إذا جشأتْ نفس الجبان وهللت
صبرنا ولو كان القيام على الجمر

ويصف الشاعر عمرو بن الحصين معركة " قديد " ، التي تقاتل فيها الخوارج والحجازيون ، وقد شهد الشاعر هذه الموقعة ولذلك خرج وصفها في مطولة بارعة تفيض بالمعاني الجميلة في وصف الفروسية ، وقد صور فيها شجاعة الخوارج وتقواهم فقال [2] :

متأوّهين كأن في أجوافهم
نارا تسعرها أكفّ حواطب
تلقاهم فتراهم من راكع
أو ساجد متضرع أو ناحب

(١) شعر الخوارج : ٥١ ، ٥٢ . (٢) المصدر نفسه : ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

ومبرئينَ من المعايب أحـــــرزوا
خصل المكارم أتقياء أطايـــــب
متسربلى حلق الحديد كأنهـــم
أُسدٌ على لحق البطون سلاهـب
حتى وردن حياض مكة قطبـــاً
يحكين واردة اليمام القـــارب
فى كل معترك لها من هامهـــم
فلـقٌ وأيدٍ علقت بمناكـــب
سائـلْ بنيوم قُدَيْدَ عن وقعاتهـــا
تخبرْك عن وقعاتهـــا بعجائـب

ولكم عجبت لهؤلاء كيف كانوا يحنون إلى الحرب ، وكانـــت تنازعهم تلك النزعة وهم بين جدران السجون . فهذا هو معاذ بـــن جوين بن حصين ، خاض معركة النخيلة ، وسجن فى عهد المغـيرة فأرسل إليهم من محبسه حين هم المغيرة بنفى الخوارج من الكوفـــة يقـــول (١) :

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ ∴ شرى نفسه لله أن يترحـــلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالــــة ∴ وكل امرئ منكم يصاد ليقتــلا
فشدوا على القوم العداة فإنمــا ∴ إقامتكم للذبح رأيا مضـــللا
فياليتنى فيكم على ظهر سابـــح ∴ شديد القُصَيرى دارط غير أعزلا

---

(١) شعر الخوارج : ٤٥ ، ٤٦ .

وياليتنى فيكم أعادى عدوكـــم ∴ فيسقيـــنى كأس المنية أولا
مشيحاً بنصل السيف فى حمس الوغى ∴ يرى الصبر فى بعض المواطن أمثلا
ولو أننى فيكم وقد قصدوا لكـــم ∴ أثرت إذن بين الفريقين قسطــلا
فيارب جمع قد فللت وغـــارة ∴ شهدت وقرن قد تركت مجـــدلا

ووصف الحرب لايقتصر على وصف أحداثها وإنما هناك وصـــف للأسلحة التى لايمكن استغناؤهم عنها فى تهيئة أسباب النصر • ولشدة أهمية الخيل ومايلعبه من دور فى المعركة نجدها تحظى بنصيب وافـــر من اهتمام شعرائهم ، فتحدثوا عن أصالتها وقوتها ، كما تحدثـــوا عن اهتمامهم الزائد بها • ووصفوا أيضا أسلحة الحرب ، فجاء فـــى شعرهم وصف للسيف بالحدة والمضاء ، وعبروا عن ذلك بألفاظ مختلفة الأشكال متحدة المعانى ، كما وصفوا الرمح والدرع والمغفر والسنور .. وغير ذلك •

وأروع من ذلك كله أنهم أدركوا أن المعنويات قد تكون عرضـــة للضعف ، فعمدوا إلى هذه القوى يستثيرونها ، ويشحذون بها عزائم الرجال ، وكان أكثر شعرهم يدور حول طلب الفوز بالشهادة ، كـــى يكفروا عن ذنوبهم التى اقترفوها فى حياتهم •

(٢) الإشادة بالأبطال :

يعد مديح الأبطال من القادة والأمراء والفرسان الذين قادوا جيوش الجهاد من أكثر موضوعات شعر الحرب والفروسية .. لأن كثيرا

... من شعر المديح كان الشاعر يصور فيه بطولة الممدوح ، ويشيد بجهاده ، وينوه بانتصاراته على أعدائه ، وقد فاضت مدائح الخوارج بمعاني الشجاعة والعزة والعفو والعدل والإقدام والإباء .. وكل هذه من لوازم الحرب والفروسية .

ومن طريف ما يروى في ذلك ما قاله شاعر الخوارج عيسى بن فاتك في انتصار فئة قليلة من الخوارج على جيش جرار لعبد الله بن رباح الأنصاري ، مرجعا السبب في ذلك إلى قوة ايمانهم وتقواهم . يقول (1):

فلما أصبحوا صلوا وقاموا	∴	إلى الجُرْدِ العتاق مُسَوَّمينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم	∴	فظلّ ذوو الجعائل يقتلونا
بقية يومهم حتى أتاهم	∴	سوادُ الليل فيه يراوغونا
يقول بصيرهم لما رآهم	∴	بأن القوم ولوا هاربينا
أألفا مؤمن فيما زعمتم	∴	ويهزمهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم	∴	ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك	∴	على الفئة الكثيرة ينصرونا

ومن هذا الوصف يتضح أن صورة البطل عند الخوارج ذات صلة بعقيدتهم ، فهم لا يعيرون اهتماما لحسب البطل أو نسبه ، بل يركزون على شجاعته ومقدرته القتالية واستماتته في طلب الشهادة .

---

(1) شعر الخوارج : ٥٤ ، ٥٥ .

(٣) الفخر بالبطولة والفروسية :

كثير من شعراء الخوارج افتخر ببطولته وفروسيته وشجاعته وبأسه في الحرب ، كما يفتخر بما يذيقه لأعدائه من ويلات وهزائم . ومن طريف مايروى في ذلك ما قاله الطرماح بن حكيم متمنيا أن يحين أجله مجاهدا في زمرة الخوارج . يقول (١) :

أذا العرش إن حانت وفاتي فلا تكن ∴ على شرجع يعلى بخضر المطارف
ولكن أحن يومي سعيدًا بعصبة ∴ يصابون في فجٍّ من الأرض خائف
عصائبُ من شتى يؤلف بينهم ∴ هدى الله نزالون عند المواقف
فوارسُ من شيبانَ ألف بينهم ∴ تقى الله نزالون عند التزاحف
فأقتلَ قعصًا ثم يرمى بأعظمي ∴ كضغث الخلا بين الرياح العواصف

وشعر قطري صدى لكل خارجي مجاهد متعبد ، قلبه قد امتلأ بحب الحرب ، وشرف الموت في المعارك أعز عنده وأبقى . يصور شجاعته وبأسه فيقول (٢) :

لايركننْ أحد إلى الإحجام ∴ يوم الوغى متخوّفا لحمام
فلقد أراني للرماح دريئة ∴ من عن يميني مرة وأمامي
حتى خضبتُ بما تحدّر من دمي ∴ أكنافَ سرجي أو عنان لجامي
ثم انصرفتُ وقد أصبت ولم أُصَب ∴ جذَعَ البصيرة قارح الإقدام
متعرضا للموت أضرب معلما ∴ بهم الحروب مشهرا الأعلام
أدعو الكماة إلى النزال ولا أرى ∴ نحر الكريم على القنا بحرام

---

(١) المصدر نفسه : ٢٣٨ . (٢) شعر الخوارج : ١١٢ .

(٤) الحث على الجهاد :

كثيرا مايفزع الخوارج إلى ذكريات قتلاهم فيثيرون أحقادهم وكان قتلى " النهروان " سبيلا دائما إلى ايقاظهم إذا هدأت ثوراتهم أو حروبهم ، وقد باعوا أنفسهم لله واشتروا بتقواهم جنات النعيم فسماهم الناس " الشراة " .

ولقطرى بن الفجاءة قصيدة فى الحث على الحرب يقول فيها (١):

أقول لها وقد طارت شَعَاعا ∴ من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم ∴ على الأجل الذى لك لم تطاعى
فصبرا فى مجال الموت صبرا ∴ فما نيلُ الخلود بمستطاع
ولاثوبُ البقاء بثوب عز ∴ فيُطوَى عن أخى الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حى ∴ فداعيه لأهل الأرض داعى
ومن لايُغْتَبَط يسأمْ ويهرمْ ∴ وتُسْلِمْهُ المنون إلى انقطاع
وماللمرء خير فى حياة ∴ إذا ماعُدَّ من سقط المتاع

وقد حث شاعرهم حيان بن ظبيان السلمى على طلب الثأر من الظالمين . فقال (٢) :

خليلى مابى من عزاء ولاصبر ∴ ولا إربةٍ بعد المصابين بالنهر
سوى نَهَضات فى كتائب جمة ∴ إلى الله ماتدعو وفى الله ماتفرى

---

(١) شعر الخوارج : ١٠٨، ١٠٩ . (٢) شعر الخوارج : ٤٤ .

وقد ارتجز زعيمهم " عبد الله بن وهب الراسبي " يوم النهروان شعرا طالب فيه بالثأر . فقال [1] :

أنا ابن وهب الراسبيّ الشاري
أضرب في القوم لأخذ الثار
حتى تزول دولة الأشرار
ويرجع الحق إلى الأخيار

(٥) بكاء الأبطال :

لقد كثر القتل في الخوارج بسبب كثرة حروبهم ، حتى أن المراثي التي جاءت في شعر شعرائهم كانت كلها بمناسبة الاستشهاد في ميادين الجهاد ، اللهم إلا أبياتا قليلة كانت في رثاء فقيد عزيز أو مراثي النساء لذويهن في بكاء ونحيب وذرف دموع .

وقد رثى شاعر الإباضية عمرو بن الحصين أبا حمزة وغيره من الشراة . ومن يقرأ هذه المرثية الطويلة يكاد ينسى أنه في موضع رثاء ، لأن الحديث حديث بطولات ومآثر . فهو يصفهم بالثبات في حومة الوغى ، ويتخذ أبا حمزة وصحبه نموذجا حيا للخوارج المثاليين الذين يخوضون المعارك ويتركون الهوى ، عندهم الشهامة والمروءة ، يخوضون غمرات القتال دونما وجل أو فزع ، وهكذا يكون الحديث كله ثناء على من ماتوا .

---

(١) شعر الخوارج : ٣١ ، ٣٢ .

يقول فيها (١) :

فى فتية صبروا نفوسهم	للمشرفيّة والقنا السمر
متأهبون لكل صالحة	ناهون مَنْ لاقوا عن الفكر
كم من أخ لك قد فجعت به	قوام ليلته إلى الفجر
والمصطلى بالحرب يسعرها	بغبارها فى فتيةٍ سعر
لاشئ يلقاه أسرّ له	من طعنة فى ثغره النحر
والخائض الغمرات يخطرُ فى	وسط الأعادى أيّما خطر

(٦) التهكم بالأعداء :

وقد تمثل هذا فى فرح الشاعر عمران بن حطان بانخذال الحجاج بن يوسف حين اعتصم بالحصن خائفا من غزالة الحرورية التى دخلت عليه الكوفة . يقول عمران متهكما بالحجاج وكان قد لج فى طلبه (٢) :

أسدٌ علىّ وفى الحروب نعامةٌ	ربداءُ تُجفِلُ من صفير الصافر
هلّا برزتَ إلى غزالة فى الوغى	بل كان قلبك فى جناحَىْ طائر
صَدَعَتْ غزالة قلبَهُ بفوارسٍ	تركت منابره كأمس الدابر
ألقِ السلاح وخذ وشاحَىْ مُعْصِرٍ	واعمدْ لمنزلة الجبان الكافر

خصائص شعر الحرب عند الخوارج :

(١) تلك هى أهم موضوعات شعر الحرب والفروسية . والذى

(١) شعر الخوارج : ٢٢٤ . (٢) شعر الخوارج : ١٦٦ ، ١٦٧ .

يلفت النظر فى شعر الخوارج فى الحرب وفرة الأرجاز فيه ، والتى يفهم منها أنها كانت تنشد فى ميادين القتال تشجيعا للرجال على الصبر والثبات أو كوعيد وتهديد للأعداء .

(٢) ومما نلحظه على هذا الشعر أن هؤلاء الشعراء لولم يفنهم القتال ، ولو لم تعصف الحرب على أشعارهم ، ولو لم يعيشوا تلك الحياة القلقة المضطربة التى اضطهدوا فيها فى كل صقع .. لولا هذا كله لخرج شعرهم فى الحرب وكأنه مدرسة فى هذا الفن ، ولكان لهم قصب السبق والريادة فى هذا السبيل ، ذلك لأن كثيرين من أصحاب هذا الشعر كانوا من زعماء المذهب الخارجى ، فجاء من ثم شعرهم خلاصة تجربة ذاتية حية ، بعيدا عن التكلف والرياء ، يخاطب المشاعر والوجدان ، بالكلمات المؤثرة والشعارات المثيرة .

(٣) <u>ولعل الظاهرة الهامة التى تطغى على شعر الحرب عند الخوارج</u> أن الروح الدينية تتمثل فيه لدرجة تجعل الشاعر يتخلى عن عصبيته القبلية ، فهو ينتسب للإسلام دون بكر أو تغلب .. وإن كان قد وجدت عندهم عصبية فإنها فنيت فناء تاما فى عقيدتهم الدينية.

(٤) وقد اختلفت قصائد الخوارج فى الحرب عن قصائد الأمويين فى الأغراض ، فهى — أى قصيدة الخوارج — تدور حول معنى واحد ، وغرض واحد ، واختلفت كذلك فى المطالع التقليدية فالأمويون يستهلون قصائدهم بالغزل ، أما عند الخوارج فيندر أن تجد هذا .

(٥) ويلاحظ أيضا ، أن قصائد الخوارج كانت في معظمها مقطوعات قصيرة ، وقد تكون في صورة بيتين أو ثلاثة أو أربعة . وقد خرج عن هذا الشاعر الخارجي عمرو بن الحصين وبخاصة في قصيدته التي رثى فيها أبا حمزة وغيره من الشراة ، فقد تجاوزت هذه القصيدة الخمسين بيتا في أسلوب قصصي يتميز بدقة الوصف وتكرار المعاني واستقصاء الموضوع وقد علل الأستاذ أحمد الشايب هذا بأن عمرو كان فارسا متأصلا [(١)] . ويمكن أن نضيف إلى ماقاله أن الشاعر ربما تأثر بما في القرآن الكريم من معان وقصص ، إذ كان يتلوه آناء الليل وأطراف النهار .

(٦) أما فيما يخص الصياغة اللفظية فإن شعرهم يمتاز بالسلاسة والدقة ، وقد جاء صريح اللفظ ، لأنهم لم يكن يعنيهم إبراز براعتهم اللغوية ، وكل الذي يعنيهم أنهم أرادوا النفوذ إلى قلب من يخاطبون دونما حواجز تحول بينهم وبينهم .

(٧) وقد تأثروا بلغة القرآن الكريم وأسلوبه ، وظهر التضمين عند كثير من شعرائهم . كقول عيسى بن فاتك :

هم الفئة القليلة غير شك ∴ على الفئة الكثيرة ينصرونا

فهو تضمين لقول الله تعالى : " كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين " [(٢)] .

---

(١) انظر تاريخ الشعر السياسي : ١٧٣ . ط النهضة المصرية ١٩٦٦م .
(٢) سورة البقرة ٢٤٩ .

وقول الطرماح بن حكـــيم :

يوم لاينفع المخول ذا الثـر ∴ وة خلانــه ولا ولـــده
يوم يؤتى به وخصماه وســط ∴ الجن والإنس رجله ويده

تضمين لقوله تعالى : " يوم لاينفع مال ولابنون . إلا من أتـى الله بقلب سليم "(١) . وقوله : " يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون "(٢) .

وخلاصة القول أن شعر الحرب والفروسية عند الخوارج كان ثورة غالية العناد جامحة القياد ، ثورة تستبيح دم من لايؤمن بها .

....

---

(١) سورة الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .
(٢) سورة النـــور : ٢٤ .

" من شعـراء الخـــوارج "

(عِمْرَانُ بنُ حِطَّان) (١)

هو عمران بن حطان بن ظَبْيان بن لَوْذان بن عمرو بن الحارث وهو بصري الأصل ، وشاعر فصيح من شعراء الخوارج ودعاتهم ، وقد أدرك صدرا من الصحابة وروى عنهم ، وروى عنه أصحاب الحديث .

وكان قبل أن يفتن بالمذهب الخارجي مشتهرا بطلب العلم والحديث ، لكنه لم يلبث أن وقع في أسر ابنة عم له تسمى جمرة ، قيل إنه حين رآها أخذ بجمالها وأحبها ، وكانت خارجية ، فسعى من ثم ليردها عن مذهبها ، لكنها لم تلبث أن نجحت في تحويله إلى مذهب الخوارج .

ويقال إن جمرة كانت زوجا لرجل اسمه سويد بن منجوف ، وكانت خارجية فسمعت بعمران وعبادته ونسكه فأرسلت إليه تطلب أن يخلصها من زوجها لتتزوج من عمران لأن رأيها رأيه ودينها دينه ، فأقبل عمران ومعه نفر من الخوارج على سويد وكلموه في أمرها فطلقها وتزوجها عمران ، وقيل لسويد : أطلقت جمرة خوفا من الخوارج ؟ فقال : لا ، ولكني لا أحب أن يكون عندي من يكرهني (٢) .

وقد أثر فيه المذهب الخارجي حتى اشتهر به ، وأخذ يشيد

---

(١) اعتمدنا في ترجمته على الأغاني : ٦٨٧٥/١٩ . الشعب .
(٢) شعر الخوارج د . احسان عباس : ١٩ .

بكل من هو خارجي ، وقد مدح عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب . يقول :(١)

لله درّ المراديّ الذي سَفَكَتْ ∴ كفّاه مهجةَ شرّ الخلقِ إنسانا
أمسى عشيةَ غشّاهُ بضربته ∴ مما جناه من الآثام عريانا
ياضربةً من تقيٍّ ما أراد بها ∴ إلا ليبلغَ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره حيناً فأحسبُهُ ∴ أوفى البريةِ عند الله ميزانا

وحين اعتنق مذهب الشراة ، واشتهر بأنه خارجي طلب الحجاج بن يوسف وأخذ يكتب في شأنه إلى عماله وإلى عبد الملك ، إلا أن عمران هرب ، وظل يتنقل في أحياء العرب .

يقول معبرا عن تنقله بين القبائل (٢) :

نزلنا في بني سعدِ بن زيدٍ ∴ وفي عكٍّ وعامرِ عوبثانِ
وفي لخم وفي أُدَدِ بنِ عمرٍو ∴ وفي بكرٍ وحيّ بني العدان

ولما دخل شبيب الصُّفري وزوجته غزالة الحَرُورِيّة (٣) على الحجاج بالكوفة ، هلع الحجاج وتحصن في قصره وأغلقه عليه ، فكتب إليه عمران ينعى عليه جبنه من غزالة ولجّه في طلبه إياه (٤) :

أسدٌ عليَّ وفي الحروبِ نعامةٌ ∴ ربداءُ تُجفِلُ من صفيرِ الصافر
هلّا برزتَ إلى غزالةَ في الوغى ∴ بل كان قلبك في جناحَيْ طائر
صَدَعَتْ غزالةُ قلبَهُ بفوارسٍ ∴ تركت منابره كأمسِ الدابر

---

(١) شعر الخوارج : ١٤٧ . (٢) شعر الخوارج : ١٦٠ .
(٣) الحرورية : فرقة من الخوارج ، نسبت إلى حروراء ، لأن هذا الموضع كان أول اجتماعهم به . (٤) شعر الخوارج : ١٦٦ .

ولعمران أشعار كثيرة ، وهو فيها يصدر عن حب عميق لمذهب الخوارج ، وقد اجتمعت الشعراء عند عبد الملك بن مروان ، فقال لهم : أبقى أحد أشعر منكم ؟ قالوا : لا ، فقال الأخطل : كذبوا يا أمير المؤمنين ، قد بقى من هو أشعر منهم ، قال : ومن هو ؟ قال عمران بن حطان ، قال : وكيف صار أشعر منهم ؟ قال : لأنه قال وهو صادق ففاقهم ، فكيف لو كذب كما كذبوا (١) .

وقد شهد الفرزدق له بجودة شعره فقال (٢) : لقد أحسن بنا ابن حطان حيث لم يأخذ فيما أخذنا فيه ، ولو أخذ فيما أخذنا فيه لأسقطنا . يعنى لجودة شعره .

وقد خاض حروبا كثيرة فى سبيل المذهب الخارجى ، إلا أن عمره قد طال له درجة أضعفته وأقعدته عن الحرب وحضورها ، فاقتصر على الدعوة والتحريض بلسانه . وقد ثار ثورة بالغة حين قتل أبو بلال مرداس ، فأخذ يرثيه بشعر تضمن التفكير فى حمل السلاح . يقول (٣) :

لقد زاد الحياةَ إلىّ بغضـًا ∴ وحُبًّا للخروج أبو بلالِ
وعروةُ بعده سَقيًا ورَعيـًا ∴ لعروةَ ذى الفضائل والمعالى
أحاذرُ أن أموتَ على فراشى ∴ وأرجو الموتَ تحت ذُرَى العوالى
ولو أنى علمتُ بأن حَتْفى ∴ كحتفِ أبى بلالٍ لم أبالِ
فمن يكُ همُّهُ الدنيا فإنى ∴ لها واللهِ ربِّ البيتِ قالى

(١) الأغانى : ١٩/٦٨٨٥ (٢) الأغانى : ١٩/٦٨٨٧ .
(٣) شعر الخوارج : ١٤٢ ، ١٤٣ .

وعمران يخشى أن يموت على فراشة ، وكثيرا ماكان يحسن لغيره الخروج ، بل كثيرا ماكان يغرى رفاقه بالحرب ، وهو بهذا كله يزدرى الحياة ويزهد فيها ، لأنه لايحتمل مافيها من أذى ومكروه ولذلك ردد فى شعره أن الموت لامفر منه لكائن ، فالكل فانٍ حتى الموت نفسه (١)

لايعجز الموت شئ دون خالقه ∴ والموت فان اذا مانا له الأجل
وكل كرب أمام الموت متضع ∴ للموت ، والموت فيما بعده جلل

وتتبدى فى هذا الشعر فكرة الموت التى تلقانا دائما فى شعر الخوارج ، إلا أن عمران حين يتحدث عن الحرب نراه لايفتخر بشجاعته وبفروسيته كما فعل مثلا قطرى بن الفجاءة ، ففى تناوله للحرب نراه يصور ذاته ويفتخر بفروسيته وبشجاعته ، كما فى قوله (٢) :

لايَرْكَنَنْ أحدٌ إلى الإحجام ∴ يومَ الوغى متخوفًا لحمام
فلقد أرانى للرماح دَريئةً ∴ من عن يمينى مرةً وأمامى
حتى خضبتُ بما تحدَّر من دمى ∴ أكنافَ سرجى أو عنانَ لجامى
ثم انصرفتُ وقد أصبت ولم أُصَبْ ∴ جَذَعَ البصيرة قارحَ الإقدام
متعرضاً للموت أَضرِبُ معلما ∴ بُهَمَ الحروب مشهَّر الأعلام
أدعو الكماة إلى النزال ولا أرى ∴ نحر الكريم على القنا بحرام

ولاشك فى أن عمران كان أصلب فى عقيدته ، وأشد غلوا فى

(١) شعر الخوارج : ١٥١ .
(٢) شعر الخوارج : ١٠٩ .

فكرة الخوارج من غيره ، وهو ليس بأقل من غيره في الشجاعة والبـأس ولعل هذا قد نسب إليه لأن معظم شعره في الحرب والفروسية قد فقد ولم يصل إلينا إلا النزر اليسير منه ، وما قيل عن اعتزاله الحرب والقتال لم يصدق إلا حين كبر سنه وأصبح غير قادر على الحرب ، وهو ـ مع قلة شعره ـ لا يقل شهرة عن غيره من شعراء الخوارج . وكان لا يقول أحد من الشراة شعرا إلا نسب إليه ، لشهرته ، إلا من كان مثلـه في الشهرة مثل قطري بن الفجاءة وعمرو القنا وذويهما (١) .

---

(١) الأغاني : ١٩/٦٨٨٨ .

(الفصل الثاني)

(شعر الحرب والفروسية في أدب الشيعة)

من ينظر ماقاله شعراء الشيعة فى عصر بنى أمية يجده يحمل ثورة عنيفة على بنى أمية ، ثورة تنطوى على حقد شديد ، والمطالبة بسفك دماء بنى أمية ، كما سفكت دماء علىّ والحسن والحسين وزيد بن على وغيرهم من زعماء الشيعة قادة وأنصارا .

وقد سجل شعراء الشيعة ماحل بالحزب الشيعى من نكبات وماوقع عليه من مصائب طوال حكم الأمويين . ولم يغفلوا كذلك تصوير المعارك والحروب التى دارت بسبب من مذهبهم ومطلبهم ، وحولوا هذه الأشعار إلى بكائيات يحرضون فيها على الثأر ، وينوحون كذلك على شهدائهم وأئمتهم الأبرار .

وشعر الشيعة أقل مستوى فى الفروسية من شعر الخوارج ، ولعل هذا مرده إلى أن الشيعة أصحاب نزعة سياسية ودينية ، ولم يكونوا يحاربون وراء مطلب سام ، وإنما كانت حروبهم بسبب أمور دنيوية خالصة ، فهم يريدون أن يولوا الخلافة آل البيت .. أما الخوارج فلم يحاربوا من أجل السياسة ، وإنما كانوا يحاربون من يتخذ الدين وسيلة إلى الدنيا ، ولذلك حاربوا كل الفرق والنحل حتى أصبحوا خصوما للشيعة والزبيريين والأمويين على السواء .

وكان لموت الحسن بن على رنة حزن فى نفوس الشيعة فالخلافة ورد الأمر شورى بين المسلمين كما تقضى بذلك شروط الصلح كل ذلك كان ينتظره أهل الشيعة بعد موت معاوية ، أما وقد مات الحسن بغتة فإن فى هذا خيبة أمل كبيرة للشيعة ، ولذلك أخذوا يبكونه أحر بكاء .

وكان شعراء الشيعة يخوضون المعارك ، ويذودون عن الأئمة ويجودون بأنفسهم فى الحرب دونهم . فهذا هو البطل حبيب بن مظاهر يقول فى ذوده عن الحسين بن على موجها الخطاب للأمويين (١) :

أنا حبيب وأبى مظاهرُ ∴ فارس هيجاء وحرب تسعر
أنتم أعد عدة وأكثر ∴ ونحن أوفى منكم وأصبر
ونحن أعلى حجة وأظهر ∴ حقا وأتقى منكم وأعذر

فلما قتل الحسين رأينا ، الشعراء محزونين ، وأخذوا يبكونه ويندبونه بدموع لا تجف . وهذا هو الشاعر سليمان بن قتّة يرثى الحسين بشعر كله زفرات ودموع . يقول (٢) :

مررتُ على أبيات آل محمد ∴ فلم أرها كعهدها يوم حُلّتِ
وكانوا رجاء ثم صاروا رزيّة ∴ وقد عظمتْ تلك الرزايا وجلتِ
ألم تر أن الشمس أضحتْ مريضةً ∴ لفقد حسين والبلاد اقشعرّتِ
وقد اعولتْ تبكى السماء لفقده ∴ وأنجمها ناحت عليه وصلّتِ

---

(١) شعر الحرب فى أدب العرب ص ٨٢ ، ٨٣ . عن الطبرى .
(٢) مقاتل الطالبيين ، الأصبهانى : ١٢١ . ط الحلبى .

وسرعان مايتحول الرثاء فى الحسين إلى التحريض على قتل من قتلوه ، والأخذ بثأره وثأر من مات معه من رفاقه . ومن خير مايمثل ذلك قصيدة للشاعر عوف بن عبد الله الأزدى ، وفيها يقول (١) :

ويا ليتنى إذ كنتُ شهدتُه ∴ فضاربتُ عنه الناشئن الأعاديا
ودافعتُ عنه مااستطعت مجاهدا ∴ وأعملت سَيْفى فيهمُ وسنانيا

وعلى هذا النحو كان كل شاعر شيعى يطوى فى نفسه رغبة قوية فى سفك دماء من قتلوا أحدا من الشيعة . ومن خير مايصور ذلك قصيدة لعبيد الله بن الحر حينما خرج فى جماعة من أصحابه حتى أتى كربلاء ، ورأى مصارع القوم ومنهم الحسين ، فأخذ ينشد (٢) :

فياندمى ألا أكون نصرته ∴ ألا كلُّ نفس لاتُسدِّد نادمه
وإنى لأنى لم أكن من حماته ∴ لذو حسرة ماإن تفارق لازمه
سقى الله أرواح الذين تآزروا ∴ على نصره سُقْيا من الغيث دائمه
لعمرى لقد كانوا مصاليت فى الوغى ∴ سراعا إلى الهيجا حماة حضارمه
تأسَّوْا على نصر ابن بنت نبيهم ∴ بأسيافهم آسادَ غيلٍ ضراغمه
لعمرى لقد راغمتونا بقتلهم ∴ فكم ناقم منا عليكم وناقمه
أهُمُّ مرارا أن أسير بجحفل ∴ إلى فئة زاغت عن الحق ظالمه
فكفُّوا وإلا ذُدتُكم فى كتائب ∴ أشدّ عليكم من زحوف الديالمه

---

(١) مروج الذهب : ٢/١١٠ .
(٢) مروج الذهب : ٢/٢٣٣ .

وقد تعرض الشاعر الكميت — وهو المتشيع الصادق — لمصرع الحسين فقال عن قاتليه [(١)] :

ومن عجب لم أقضه أن خيلهم ∴ لأجوافها تحت العجاجة أزمل
هماهم بالمستلئمين عوابس ∴ كحدآن يوم الدجن تعلو وتسفل
يحلئن عن ماء الفرات وظله ∴ حسينا ولم يشهر عليهن منصل
كأن حسينا والبهاليل حوله ∴ لأسيافهم مايختلى المتبقل
فلم أر مخذولا أجل مصيبة ∴ وأوجب منه نصرة حين يخذل
يصيب به الرامون عن قوس غيرهم ∴ فيا آخرا أسدى له الغي أول

كذلك كان بكاء الشيعة حين قتل زيد بن على بن الحسين فالمفضل الضبي يبكيه ويخلط بكاءه بتهديد بني أمية . فيقول [(٢)] :

ألا ياعينُ لاتَرْقيْ وجُودي ∴ بدمعك ليس ذا حينَ الجمود
وكيف تضنّ بالعبْرات عيني ∴ وتطمع بعد زيدٍ في الهجود
وكيف لها الرُّقاد ولم تراني ∴ جيادَ الخيل تَعْدُو بالأسود
بأيديهم صفائحُ مرهفات ∴ صوارمُ أُخْلِصَتْ من عهد هود
بها نَسْقي النفوس إذا التقينا ∴ ونقتل كل جبار عنيد
ونَحْكم في بني الحكَم العوالي ∴ ونجعلهم بها مثل الحصيد

وهكذا يتضح من كل ماسبق أن الشيعة كانت تستغرق أشعارهم ثورات جامحة ضد بني أمية ، فهم أوقعوا بهم الحزن على أئمتهم

---

(١) الهاشميات : ٧٠ . ط شركة التمدن ١٩١٢ .
(٢) مقاتل الطالبين : ١٤٩ .

وشهداثهم ، دون أن يرعوا فيهم رحما لرسول الله ولا قربى
وقد تحول شعراؤهم يبكون ويندبون مصيرهم بدموع لا ترقأ .. ولا عجب
فلم يكن هناك من بين الفرق فرقة تعرضت للمحن كما حدث للشيعة

وشعرهم فى تصوير المعارك والبطولة ملتهب حار ، لأنه تعبير
عن عواطف صادقة وتنفيس عن نفوس مكلومة ، اغتصب الأمويون حقوقها
ولهذا كانوا بارعين فى تصوير ما نزل بهم من نكبات ، ووازنوا بين حالهم
وحال غاصبيهم .

ولم يكن متاحا للشيعة أن تثأر من بنى أمية ، فسيوف الأمويين
كانت مصلتة ، وولاتهم كانوا يتعقبون الشيعة ويعدون عليهم أنفاسهم
ولهذا أخذت الشيعة بمبدأ التقية ، وأصبح لزاما على كل شاعر شيعى
أن يطوى فى نفسه حزنا عميقا وثورة جامحة ، ورغبة قوية فى الاشتفاء
بسفك دماء من قتل أئمتهم الشهداء .

وكما انطبع شعرهم بطابع الحزن نراه يصبغ بصبغة السياسة
الدينية ، وكانت الصبغة الدينية فى شعرهم أشد وضوحا ، فهم
يشيدون بأهل البيت ويتخذون من حبهم قربى من الله تعالى ، ويجدون
فى هذا الحب زادا يقنعون به عن متاع الدنيا .

وعلى كل حال فقد عبروا عن عواطفهم وعقائدهم تعبيرا شاملا
جيدا فى معانيه وأساليبه ، وكانوا يعتمدون فى أسلوبهم ومعانيهم
على القرآن الكريم اعتمادا ملحوظا بحكم حرصهم على صبغ سياستهم

وأفكارهم بصبغة دينية شرعية ، وبخاصة فى هجومهم على بنى أمية .

(من شعراء الشيعـــــة)

" الكميت بن زيد الأســدى " (١)

هو الكميت بن زيد الأسدى ، ولد بالكوفة سنة ٦٠ هجريـة وأخذ يختلف إلى دروس العلماء يتلقن الفقه والحديث النبوى وأنساب العرب وأيامها ، وعرف بالتشيع لبنى هاشم ، ومات قبل الدولـة العباسية فلم يدركها سنة ١٢٦ هـ فى خلافة مروان بن محمد .

ولا يلبث أن يبرع فى قرض الشعر ، ويجلس إلى الشعراء يفيد منهم ، وطلب بشعره جوائز الأشراف والولاة والخلفاء ، وقد وقف أمام الشاعر الفرزدق وهو ينشد أشعاره فأعجب بها . وقد قال له الفـرزدق : ياغلام ، أيسرك أنى أبوك ؟ فقال : لا ، ولكن يسرنى أن تكون أمى . فحصر الفرزدق ، فأقبل على جلسائه وقال : مامر بى مثل هذا قـط " (٢) .

وكانت له أشعار ثائرة حبس بسببها فى سجن الأمويين ، وهو مع تشيعه يفخر بمضريته ويهجو اليمن هجاء شديدا . ويقال إن سبب هذا الهجاء ، أن شاعرا من أهل الشام ، يقال له : حكـيم بن عياش الكلبى ، كان يهجو بنى هاشم جميعا ، وكان منقطعـا

---

(١) اعتمدنا فى هذه الترجمة على كتاب الأغانى : ١٨ / ٦٢٦٥ .
(٢) الأغانى : ١٨ / ٦٢٩٠ ، ٦٢٩٢ .

إلى بني أمية ، فانتدب له الكميت فهجاه وسبه ، ولج الهجاء بينهما وكان الكميت يخاف أن يفتضح في شعره عن علي ، وكان يظهر أن هجاءه إياه للعصبية التي بين بني عدنان وقحطان (١) .

وشعره يصور بني أمية طغاة ، سلبوا الخلافة ، وسفكوا الدماء بغير حق ، ولذلك حمل على بني أمية حتى قال فيهم وفي بني هاشم(٢) :

وعُطِّلَت الأحكام حتى كأننا ∴ على ملة غير التي نتنحّل

كلام النبيين الهُداة كلامنا ∴ وأفعال أهل الجاهلية نفعل

رضينا بدنيا لا نريد فراقها ∴ على أننا فيها نموت ونُقتل

* * *

فتلك ملوك السوء قد طال ملكهم ∴ فحتى م حتى م العناءُ المطول

فيارب هل إلا بك النصرُ يُرتَجى ∴ عليهم ، وهل إلا عليك المُعَوَّل ؟

وهذه القصيدة من صميم الشعر الحربي ، ففيها يصف شجاعة أئمة الشيعة وأبطالهم ، ويتمدح بخصالهم الحميدة ، ويصف بأسهم وصلابتهم ضد الأمويين .. ولا عجب فالشاعر محب لآل البيت ، لما لهم من قرابة عند رسول الله ، وقد أظهر هذا الحب في عاطفته الحارة التي سادت هاشمياته التي لم ينشدها للتكسب أو النوال . وقد روى أنه رفض عطاء لهم وقال : والله ما أحببتكم للدنيا ، ولو أردت الدنيا

---

(١) الأغاني : ١٨ / ٦٣٠٥ .

(٢) أدب السياسة في العصر الأموي : ٤٩٢ ، ٤٩٣ .

لأتيت من هي في يديه ، ولكني أحببتكم للآخرة [1] » .

وللكميت قصائد صادقة العاطفة قالها في بني هاشم ، يحتج فيها لهم ، ويبين أحقيتهم بالخلافة ، ويهجو فيها حكام بني أمية ويدعو للثورة عليهم ، وهذه هي (هاشميات الكميت) .

وهي ذات طابع خاص ، ولعل هذا هو الذي جعله لا يبدأها كعادته ببكاء الأطلال أو الغزل ، وإنما كثيرا ما كان يبدأها بحب آل البيت والانتصار لهم ، كقوله :

طربت وما شوقا الى البيض أطرب ∴ ولا لعبا مني ، أذو الشيب يلعب ؟
ولكن إلى أهل الفضائل والنُّهى ∴ وخير بني حواءَ ، والخيرُ يطلب

والكميت لم يكن يفتن في شعره ، وإنما كان يسوق أفكاره مساق المتحدث الجدل ، وشعره في آل البيت حجاج لهم ودفاع عن حقهم وحملة على خصومهم .. ويكفيه أنه أسبق الشعراء الى تأريث هذه الحملة حتى استطار لهيبها مدة من الزمان .

---

(1) الأغاني : ١٨ / ٦٢٩٢ .

(الفصـــل الثالـــث)

" شعر الحرب والفروسية فى ظـــل الزبيريـــين "

من ينقب عن الشعر الذى واكب حركة الزبيريين يجده أقـــل مما قيل فى غيرهم من الأحزاب السياسية الأخرى كالشيعة أو الخـــوارج أو بنى أمية ، ولعل مرد ذلك إلى أن حركة الزبيريين لم يكتب لهـــا طول العمر ، فضلا عن أن الزبيريين لم يؤمنوا بدور الشعر فى الانتصار للسياسة والتوطيد لها ، ولهذا قل عدد الشعراء المناصرين لمذهبهم.

وقد استطاع شعرهم مع قلته أن يصور الأحداث السياسية الدامية والوقائع الحربية المترتبة عليها تصويرا ينم عن مقدرة رائعة ، ولعل شعرا لم يبلغ فى ذلك مابلغه شعر ابن قيس الرقيات ، فهو شاعر الزبيريـــين ونظريتهم السياسية غير مدافع ، وفى شعره مجال لوصف البطولة الـــتى عرفها التاريخ للحركة الزبيرية فى سلمها وفى حربها .

ونحن سنعرض لشعر الحرب والفروسية من خلال ارتباطـــه بالأحداث السياسية والمعارك الحربية التى شغلت شعراء الحـــزب الزبيرى ، والتى جاءوا بها فى ثنايا قصائدهم لا فى قصيدة خاصـــة شأنهم شأن معظم شعراء الأحزاب الأخرى .

وهاهى موضوعات شعر الحرب والفروسية عند شعراء الحـــزب الزبـــيرى :

(١) وصف الفروسية والافتخار بهـــا :

وابن قيس الرقيات صورة صادقة لفروسية الزبيريين ، فهـــو صاحب سياسة ، وهو وإن تغزل ووصف عواطفه أحيانا ، لايكون ذلــك للهو ولا لوصف حب صادق ، ولكن ليعبث بخصومه السياسيين [١] .

وشعره فياض بالحماسة ومعاناة الفروسية . ففى قصيدته التى قالها حين ارتحل إلى فلسطين نجده يفخر بفروسيته . فيقول [٢] :

حَلَقٌ من بنى كِنانة حولــى ∴ بفلسطين يُسرعون الركوبـــا
من رجال تُغْنى الرجالَ وخيلٍ ∴ رُجُم بالقنا تسُدُّ الغُيُوبـــا
لايبالون من أقام إذا مـــا ∴ كشفوا بالسيوف يوما عصيبـــا
ذاك خير من البليخ ومن صو ∴ ت ذئاب على يدعون ذيبا [٣]
إن قوم الفتى هُمُ الكنزُ فى دُنْـ ∴ ياه والحال تُسْرع التقليبـــا

وله آمال وأمانى ، ولا يتحقق له شيء من أمانيه إلا بركـــوب المخاطر والأهوال ، وقد كانت له حروب وغزوات ، ولم يقصر فى وصف نفسه بالفروسية وبالبأس فى القتال والحرب . يقول [٤] : واصفا إحـدى غاراتـــه :

فعدونا بهن فى غَبَش الليـ ∴ ـل دِقاقاً كأنهن المَغالــى
أدرك الذَّحْلَ فتيةٌ من بنى عمـ ∴ ـرو بصبر النفوس بين العوالى

---

(١) انظر حديث الأربعاء د . طه حسين : ١ / ٢٥٠ . دار المعارف ط ١٢ .
(٢) الديوان : ١٠٩ ، ١١٠ . دار بيروت ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م
(٣) يعنى بالبليخ العراق .   (٤) الديوان : ١١٦ .

لو رأتني ابنة النّويعم ليلى ∴ إذْ تَلُفّ الأبطال بالأبطال
حين ننعى أخاك بالأسَلِ السمـ ∴ ـر وشُعْثٍ كأنهن السّعالى
لَشفى نفسَك انتقامُ بني عمـ ∴ ـك حين الدماءُ كالجِرْيال
طُلَّ مَنْ طل في الحروب ولم يُـ ∴ ـطْلَلْ عليٌّ ولا دماء الموالي
وبني مالكٍ بن حِسْلٍ تأرْنا ∴ غيرَ فخرٍ بنا وغير انتحال
وأصبْنا بعد الرجال رجالاً ∴ وحَوَيْنا الأموال بالأموال

وله قصيدة في مدح قريش ومصعب بن الزبير[1] ، وفيها يشيد بانتصار مصعب على المختار الثقفي . فيقول :

والزبيرُ الذي أجاب رسول الـ ∴ ـله في الكرب والبلاءُ بلاء
والذي نَقّص ابن دومة ماتُو ∴ حي الشياطين والسيوف ظماء
فأباح العراق يضربُهُمْ بالسيـ ∴ ـف صلتا وفي الضّراب غلاء
غُيّبوا عن مواطنٍ مفظعات ∴ ليس فيها إلا السيوفَ رجاءُ
فسعوا كي يُفَلّلوك ويأبى الـ ∴ ـله إلا الذي يرى ويشاء
إنما مُصْعَبٌ شِهاب من اللـ ∴ ـه تجلّت عن وجهه الظلماء
مُلْكُهُ ملك قوة ليس فيه ∴ جبروتٌ ولا به كبرياء

ويأسى لحرق جيوش الشام للبيت الذي يحج إليه الناس من كل فج عميق ، ثم لا يلبث أن يدعو دعوة عنيفة لحرب عبد الملك وبني أمية حتى تقوض دولتهم في عقر دارها :

---

(١) الديوان : ٨٧ — ٩٦ .

ليس لله حرمة مثلُ بيـت ∴ نحن حجّابه عليه المُـلاءَ
خصه الله بالكرامة فالبـا ∴ د ون والعاكفون فيه سـواء
كيف نومى على الفراش ولمّا ∴ يشمل الشام غارة شعـواء
تُذْهل الشيخ عن بنيه وتُبْدى ∴ عن بُرَاها العقليةُ العذراء
أنا عنكم بنى أمية مُـزْوَرٌّ ∴ وأنتم فى نفسىَ الأعـداء
إن َقتْلَى بالطَّفّ قد أوجعتنى ∴ كان منكم لئن ُقتلتم شفاء

(٢) وصف المعارك والحـروب :

كان مسلم بن عقبة المرى قد أنزل فى وقعة الحرة بأهل المدينة من أعمال العنف والقسوة والتنكيل ما أنزل ، وتذكر كتب التاريخ أن المدينة قد فقدت فى هذه الوقعة كثيرا من صحابة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، كما فقدت كثيرا من قريش والأنصار .

وكان لهذه الوقعة أثر عميق فى نفوس الناس ، وبخاصة أصحاب عبد الله بن الزبير . وعلى رأس هؤلاء الشاعر ابن قيس الرقيات فقد رثى ضحايا هذه الوقعة بقصيدة يقول فيها [١] :

ذ هب الصبا وتركت غيّتيه ∴ ورأى الغوانى شيب لمتيهْ
وهجَرْنَنى وهجرتُهُنَّ وقد ∴ غنيتْ كرائمها بطفن بيتهْ
إذ لِمّتى سوداءُ ليس بها ∴ وَضَحٌ ولم أُفْجَعْ بإخوتيهْ
الحاملين لواءَ قومهـم ∴ والذائدين وراء عورتيهْ

(١) انظر ابن الأثير الكامل : ٤ / ١١١ (٢) الديوان : ٩٧ — ١٠٠ .

إن الحوادث بالمدينة قد ∴ أوجعننى وقرعن مروتيه
وجببننى جب السنام فلم ∴ يتركن ريشا فى مناكبيه
وأتى كتاب من يزيد وقد ∴ شدّ الحزام بسرج بغلتيه
ينعى بنى عمى وإخوتهم ∴ حلّ الهلاك على أقاربيه
ونعى أسامة لى وإخوته ∴ فظللتُ مستكّا مسامعيه
كالشارب النشوان قطره ∴ سَمَلُ الزّقاق تفيض عبرتيه
سَدِماً يحزننى الصحيح وقد ∴ مرّ المنون على كريتيه
كيف الرقاد وكلما هجعت ∴ عينى ألم خيال إخوتيه
تبكى لهم أسماء معولة ∴ وتقول ليلى : وارزيتيه
والله أبرح فى مقدمة ∴ أهدى الجيوش على شكتيه
حتى أفجعهم بإخوتهم ∴ وأسوق نسوتهم بنسوتيه

فهذه فجيعة أليمه ، وقد بكى الشاعر على ضحايا الوقعة بكاء حارا يمور بالثورة والتحريض على يزيد وبنى أمية ، وقد ذهب الدكتور طه حسين فى كتابه حديث الأربعاء إلى أن هذه القصيدة قد صنعت لتنوح بها النائحات (١) .

ودارت موقعة مرج راهط واستمرت عشرين يوما ، وهزم فيها جيش ابن الزبير ومن انضم إليه ، وكان زفر بن الحارث الكلابى وقومه والقيسية فى جيش ابن الزبير . وقد صور زفر قسوة هذه المعركة فقال : (٢)

---

(١) جـ ١ ص ٢٥٦ . (٢) الفرق الاسلامية فى الشعر الأموى د . نعمان القاضى : ٤٧٩ ، ٤٨٠ .

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة ∴ ليالى لاقينا جذام وحميرا
فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ∴ ببعض أبت عيدانه أن تكسرا
ولما لقينا عصبة تغلبية ∴ يقودون جردا للمنية ضمرا
سقيناهم كأسا سقونا بمثلها ∴ ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

وتظهر فروسية هذا الشاعر فى أنه صور فى الأبيات شجاعة خصومه وكيف كانوا يصبرون فى القتال شأنهم شأن الفرسان الذين اعتادوا الحرب ومارسوها .

(٣) الدعوة إلى الجهاد :

كل شعراء الحزب الزبيرى قد دعوا لحرب الأمويين ، وخاصة عبد الملك بن مروان الذى استباح المدينة والبيت الحرام وقتلوا الحسين فى موقعة كربلاء . يقول ابن قيس الرقيات (١) :

كيف نومى على الفراش ولما ∴ يشمل الشام غارة شعواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى ∴ عن براها العقيلة العذراء

وتتضمن الدعوة إلى الجهاد والتنديد بالقبائل التى تخلت عن نصرة الزبيريين . ففى موقعة دير الجاثليق دارت على جيش الزبيريين ، وصمد مصعب إلى النهاية ، وظل يقاتل إلى أن تخلت بعض القبائل عن نصرته وخذلوه حتى لم يعد قادرا فى الدفاع عن نفسه

---

(١) الديوان : ٩٥ ، ٩٦ .

وكان لهذا رنة أسى فى شعر الزبيريين . ومن خير ما يمثل ذلك ما قاله عبيد الله بن قيس الرقيات حين شاعت هزيمة مصعب فأخذ يندد بالقبائل التى تخلت عن نصرة صاحبه فقال (١) :

لقد أورث المصريين خِزْياً وذلةً ∴ قتيلٌ بدير الجاثليق مقيم
تولى قتال المارقين بنفسه ∴ وقد أَسلماه مُبْعَدٌ وحميم
فما نَصَحَتْ لله بكر بن وائل ∴ ولا صَبَرَتْ عند اللقاء تميم
ولو كان بكريا تعطّف حوله ∴ كتائب يَغْلى حَمْيها ويدوم
ولكنه ضاع الذمام ولم يكن ∴ بها مُضَرِىٌّ يوم ذاك كريم
جزى الله كوفيا هناك مَلامةً ∴ وبَصْرِيَّهم إن المُليم مليم
وإن بنى العلات أخلوا ظهورنا ∴ ونحن صريح بينهم وصميم
فإن نَفْنَ لا يَبْقَوْا أولئك بعدنا ∴ لذى حرمة فى المسلمين حريم

ولذلك حينما نقرأ أشعار زفر بن الحارث الكلابى نجدها مليئة بتهديد كل من تغلب وكلب وأخواتها من القبائل اليمنية . يقول مشيرا إلى أنه يقف دون ابن الزبير ضد قبيلة كلب وزعيمها ابن بحدل الذى يناصر بنى أمية ، ويتوعد كلبا وعيدا يتضمن الأمل فى النصر والظفر . يقول (٢) :

أفى الله أما بَحْدَلٌ وابنُ بَحْدَلٍ ∴ فيحْيَى وأما ابنُ الزبير فيُقْتَلُ
كذبتم وبيت الله لا تقتلونه ∴ ولما يكن يومٌ أغرُّ محجَّل
ولما يكن للمشرفيّة فوقكم ∴ شعاعٌ كقَرْن الشمس حين ترجّل

(١) الديوان : ١٩٦ ، ١٩٧ .
(٢) تاريخ الطبرى : ٤١٩/٤ . مطبعة الاستقامة القاهرة ١٩٣٩ .

(٤) الابتهاج بالنصر والفرح لمقتل الخصوم :

خلا وجه الشام لمروان بن الحكم وتمت له البيعة فيه بهزيمة قيس فى مرج راهط ، ونجح مروان آنذاك فى أن ينتزع مصر من طاعة ابن الزبير ، وفى هذه الأثناء أرسل عبد الله بن الزبير أخاه مصعبا على رأس حملة إلى فلسطين فى محاولة لإعادة نفوذه إلا أن هذه المحاولة فشلت ، ووجه مروان بجيش إلى العراق بقيادة عبيد الله ابن زياد . وقد اصطدم ابن زياد بجيش المختار الثقفى ، ومع أنه نجح فى هزيمة جيش له إلا أنه انهزم أمام جيش آخر بقيادة ابراهيم ابن الأشتر ، وقتل ابن زياد فى هذه الوقعة .

وكان لانتصار ابن الأشتر على عبيد الله وهزيمته ومقتله صدى فرح وابتهاج فى شعر الزبيريين ، لأن المختار الثقفى قد كفى ابن الزبير بهذا النصر لقاء الجيش الأموى ، يقول سراقة البارقى عقب هذه المعركة [1] :

أتاكُم غُلام من عرانين مَذْحِج ∴ جرئٌ على الأعداء غير نَكولِ
فيا ابن زيادٍ بُؤْ بأعظم مالك ∴ وذق حدَّ ماضى الشَّفرتين صقيل
ضربناك بالعَضْب الحُسام بحدَّة ∴ إذا ما أبأنا قاتلا بقتيل
جزى الله خيرا شُرْطَةَ الله إنهم ∴ شفوا من عُبَيْد الله أمس غليلى

---

(١) تاريخ الطبرى : ٩٢/٦ . دار المعارف ط ٢ .

(٥) الاعتـــــــذار :

قد يحدث أن تخرج جماعة على أمر الوالى ، أو يقصر قائـد فى انجاح خطة حربية مما يؤدى إلى حدوث الهزيمة ، فيقدم بعض الشعراء بالاعتذار عنهم والاستشفاع لهم ، وقد يكون المطلوب لـه العذر من الشعراء فيقوم به عن نفسه .

وقد دارت موقعة مرج راهط ، وأوقعت فيها كلب وقبائـل قضاعة ومن انضم إليهم من تغلب هزيمة مروعة بقيس ، وقد قتل فى هـذه المعركة الضحاك ، وهرب الشاعر زفر بن الحارث الكلابى . وقد أنشد فى هذه الموقعة شعرا يعتذر فيه عن فراره . قال [1] :

لعمرى لقد أبقت وقيعة راهـط ∴ لمروان صدعا بيننا متنائيـا
أرينى سلاحى لا أبالك إننـى ∴ أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أتانى عن مروان بالغيب إنـه ∴ مقيد دمى أو قاطع من لسانيـا
ففى العيش منجاة وفى الأرض مهرب ∴ إذا نحن رفعنا لهن المثانيـا
فلا تحسبونى إن تغيبت غافـلا ∴ ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيـا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى ∴ وتبقى حزازات النفوس كما هيـا
أتذهب كلب لم تنلها رماحنـا ∴ وتترك قتلى راهط هى ماهيـا
لعمرى لقد أبقت وقيعة راهـط ∴ لحسان صدعا بيننا متنائيـا
أبعد ابن عمرو وابن معن تتابعا ∴ ونقتل همام أمنى الأمانيـا
فلم ترمنى نبوة قبل هـذه ∴ فرارى وتركى صاحبىّ ورائيـا

---

(١) الطبرى : ٥/٥٤١ . دار المعارف ط ٤ ، والأغانى : ٢١/٧٤٧٩ . دار الشعب .

عشية أعدو بالقران فلا يرى ∴ من الناس إلا من علىّ ولاليا
أيذهب يوم واحد إن أسأته ∴ بصالح أيامى وحسن بلائيا
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا ∴ وتثأر من نسوان كلب نسائيا
ألاليت شعرى هل تصيبنّ غارتى ∴ تنوخا وحىّ طىء من شفائيا

ولم نعدم فى أشعارهم موضوعات أخرى كبكاء الأبطال[1] وعتاب بعض القبائل التى لم تؤازرهم وتخلت عن نصرتهم .. وغير ذلك .

خصائص هذا الشعر عند الزبيريين :

١) يتميز هذا الشعر بأنه شعر قليل ، وذلك لأن الحزب الذى مثله هذا الشعر كان حزبا قصير العمر ، ولم يكن له شعراء كثيرون كما كان للأمويين والشيعة والخوارج ، وانتاج هؤلاء الشعراء قليل غير كثير .

٢) وقد تجلت فى هذا الشعر الملامح الدينية ، فانطبع بطابع إسلامى واضح ، ويبدو هذا فى وصفهم لعبد الله ومصعب ابنى الزبير ، وفى تصوير من ناصرهم من المسلمين أو من خذلهم منهم .

٣) وهو شعر يتميز بحرارة العاطفة وصدق الاحساس ، وأوضح مظهر لهذه الحرارة حملاتهم الشعواء على خصومهم وتوعدهم إياهم ويندر أن يكون فى شعر الشعراء الآخرين ما يمثل وعيد وتهديد شعراء الزبيريين .

(١) انظر فى ذلك الأغانى : ٢١ / ٧٣٧٣ — ٧٣٩١ .

وانظر أبيات ابن قيس الرقيات :

كيف نومي على الفراش ولما ∴ تشمل الشام غارة شعواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى ∴ عن براها العقيلة العذراء
أنا عنكم يابنى أمية مزو ∴ ر وأنتم فى نفسى الأعداء

وقال زفر بن الحارث :

فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا ∴ وتثأر من نسوان كلب نسائيا

فإن هذا الشعر يمثل عاطفة كره قوية وصلت إلى حد الحقد .

(٤) تكاد تسود هذا الشعر نغمة حزينة ، ولم لا وقد جانبهم التوفيق ولازمهم سوء الحظ فى فترة نفوذهم القصيرة ، وكم كانت هزائمهم بسبب تفرق وحدتهم وتمزق شملهم ، وانصراف أصحابهم عن مؤازرتهم .

(٥) وفضلا عن ذلك فإن شعرهم يمتاز بسهولة ألفاظه وصفاء لغته وعذوبة موسيقاه . وقد ذهب الدكتور طه حسين إلى أن ابن قيس الرقيات صنع مرثيته فى قتلى الحرة لتبكى فيها النائحات .

" من شعراء الزبيريين "

(عبيد الله بن قيس الرقيات)[1]
(٧٥ هـ ـ ٦٩٤ م)

دار خلاف[2] حول اسمه هل هو عبيد الله أو عبد الله ، والأول هو الصحيح ، ولقب بالرقيات لأنه شبب بثلاث نسوة سمين جميعا رقية . وهو قرشي من بني عامر بن لؤى ، وكان يدعى شاعر قريش لأنه رأى أن الخلافة يجب أن تكون في قريش ، وعلى قريش أن تتمسك بها ، وهذا يلزم ألا تنقسم قريش على نفسها وألا تتفرق كلمتها .

يروى الأصفهاني فيقول[3] : أخبرني الحرمي قال : حدثني الزبير قال : سألت عمي مصعبا ومحمد بن الضحاك ومحمد بن حسن عن شاعر قريش في الإسلام ، فكلهم قالوا : ابن قيس الرقيات .

وكان عبيد الله زبيري الهوى ، وكان مغاليا في نصر الزبيريين يحبهم أشد الحب ، وقد مدح عبد الله بن الزبير بغرر قصائده في سلمه وفي حربه ، وكان يعادي معه عبد الملك ، وخرج كذلك مع مصعب بن الزبير على عبد الملك ، فلما قتل مصعب وقتل عبد الله هرب واستجار بعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فسأل عبد الملك في أمره فأمنه .

---

(١) اعتمدنا في ترجمته على الأغاني : ١٧١٧/٥ . دار الشعب .
(٢) الفرق الإسلامية في الشعر الأموي : ٦٩٢ .
(٣) الأغاني : ١٧١٩/٥ .

وموقف عبيد الله من الحزب الزبيرى كموقف الكميت من آل البيت فعلى حين انقطع الكميت لآل البيت حبا وتمجيدا ، نجد عبيد الله يبرز الحجج والذرائع التى يتذرع بها آل الزبير فى أحقيتهم بالخلافة وقصيدته الهمزية (١) دليل واضح على حبه لقريش ، وعلى اعتناقه المذهب الزبيرى • وفيها يقول :

حبذا العيش حين قومى جميع ∴ لم تفرق أمورها الأهواء
قبل أن تطمع القبائل فى ملـ ∴ ـك قريش وتشمت الأعداء
أيها المشتهى فناء قريش ∴ بيد الله عمرها والفناء
إن تودّع من البلاد قريش ∴ لا يكن بعدهم لحى بقاء
لو تُقَفّى وتَتْرُك الناس كانوا ∴ غنم الذئب غاب عنها الرِّعاءُ
لو بكت هذه السماء على قو ∴ م كرام لبكت علينا السماء
نحن منّا النبى الأمى والصدّ ∴ يق منا التقىّ والخُلفاء
والزبير الذى أجاب رسول الـ ∴ ـله فى الكرب والبلاء بلاء
والذى نقّص ابن دومة ماتُو ∴ حى الشياطينُ والسيوفُ ظِماء (٢)
إنما مُصعبٌ شهاب من اللـ ∴ ـه تجلّت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوة ليس فيه ∴ جبروت ولا به كبرياء

وقد بلغ من تعصبه للزبيريين أنه تهكم بنساء بنى أمية واتخذ من النسيب والتشبيب بنسوتهم مدخلا للنيل منهم ، كما فعل بأم البنين

---

(١) الديوان : ٨٧ ومابعدها •
(٢) ابن دومة : المختار بن أبى عبيد الثقفى •

امرأة الوليد بن عبد الملك وبنت عبد العزيز ، يقول فى مستهل المدح (١):

ألا هزئت بنا قرشيـ ... ـة يهتز موكبها
رأت بى شيبة فى الرأ ... س منى ما أغيبها
فقالت : أبن قيس ذا ؟ ... وغير الشيب يعجبها
رأتنى قد مضى منى ... وعضات صواحبها
ومثلك قد لهوت بها ... تمام الحسن أعجبها
فدع هذا ولكن حا ... جة قد كنت أطلبها
إلى أم البنين متى ... يقربها مقربها
أتتنى فى المنام فقلـ ... ـت هذا حين أعقبها
فلما أن فرحت بها ... ومال على أعذبها (٢)
شربت بريقها حتى ... نهلت وبت أشربها
وبت ضجيعها جذلا ... ن تعجبنى وأعجبها
وأضحكها وأبكيها ... وألبسها وأسلبها
أعالجها فتصرعنى ... فأرضيها وأغضبها
فكانت ليلة فى النو ... م نسمرها ونلعبها

وهنا شئ ينبغى أن ننبه إليه وهو أن عبد الله بن قيس الرقيات وإن سبقه الجاهليون بهذه الطريقة ، إلا أنه قد بلغ فى هذا الفن شأوا لم يبلغه شاعر آخر من الذين سبقوه أو عاصروه ، وقد وصل من هذا الغزل إلى كل ما كان يريد ، فأحفظ بنى أمية عليه أشد إحفاظ حتى

(١) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات : ٤٨ ومابعدها .
(٢) أعذبها : أى فمها .

هدروا دمه ، وأبرءوا ذمتهم ممن آواه [1] .

وكل شعره يمتاز بالعطف على آل الزبير وبالسخط على بني أمية ، وشعره له صدى قوى فى نفوس قارئيه أو سامعيه ، لأنه مدعم بالحجة والبرهان ، فملك الأمويين يقوم على القهر والتسلط والطغيان وهم أنفسهم الذين فرقوا وحدة قريش ، وقتلوا فى وقعة الحرة (سنة ٦٣ هـ) عددا كبيرا من أهل المدينة من بينهم أسامة وسعد ابنا أخيه عبد الله .

وقد بكى عبيد الله من ماتوا فى هذه الموقعة بكاء حارا يقول فيه [2] :

إن الحوادث بالمدينة قد	أوجعننى وقرعن مروتيه [3]
وجببنى جبّ السنام فلم	يتركن ريشا فى مناكبيه
وأتى كتابٌ من يزيد وقد	شُدَّ الحزام بسرج بغلتيه
يَنعى بنى عبد وإخوتَهُم	حلّ الهلاك على أقاربيه
ونَعَى أسامةَ لى وإخوته	فظللتُ مُسْتَكاً مسامعيَهْ
كيف الرقادُ وكلما هجعت	عينى ألمّ خيالُ إخوتيَهْ
تبكى لهم أسماءُ مُعْولةً	وتقول ليلى : وارزيتيَهْ

وشعر عبيد الله مجال واسع لوصف البطولة التى عرفت

(١) حديث الأربعاء : ٢٥٢/١ . (د . طه حسين) .
(٢) الديوان : ٩٨ ومابعدها .
(٣) لأقرعن مروته : إذا أصبته بشر ، والمروة واحدة المرو وهى حجارة بيض يقدح منها النار .

للزبيريين ، فهو يفتخر بقريش ويتمدح بفروسيتها ، ولم يأل جهدا في وصف قتال الزبيريين واقدامهم وحملهم السلاح وصمودهم لجيش الأمويين في العراق والحجاز . أما وصفه فروسيته فلم يك مقصرا فيها بل ذكر غاراته وحضوره القتال ، وعدد آماله وأمانيه [1] .

ومع أن النضال السياسي هو الأداة الوحيدة لفهم صاحبنا إلا أنه شاعر معروف بالغزل ، يذكر مع أصحاب التسيب من قريش وأهل الحجاز ، وقد فضل ابن أبي عتيق شعره على شعر كثير .

يروى الأصفهاني [2] : أنشد كثيّر ابن أبي عتيق كلمته التي يقول فيها :

ولستُ براضٍ من خليلٍ بنائلٍ ∴ قليلٍ ولا أرضى له بقليلِ

فقال له : هذا كلام مكافئ ليس بعاشق ، القرشيان أقنع وأصدق منك : ابن أبي ربيعة حيث يقول :

ليت حظّي كلحظةِ العين منها ∴ وكثيرٌ منها القليلُ المهنّا

. . . .

وقوله أيضا :

فعِدِي نائلاً وإن لم تُنيلي ∴ إنه يُقنِعُ المحبَّ الرجاءُ

وابن قيس الرقيات حيث يقول :

رُقَيَّ بعيشكم لا تهجرينا ∴ ومَنّينا المنى ثم امطُلينا

(١) يلاحظ ذلك في الحديث عن شعر الحرب والفروسية عند الزبيريين .
(٢) الأغاني : ١٧٣٩/٥ ، ١٧٤٠ .

يَعِدِينا فى غدٍ ما شئت إنّـا ∴ نحب وإن مَطلتِ الواعدينـا
فإما تُنجزى عِدَتِي وإمـا ∴ نعيش بما نُؤمِّل منك حينـا

ولاشك أن الشاعر كان صاحب لهو ، وأنه اتخذ الغزل وسيلـة إلى اللهو كما اتخذه وسيله إلى السياسة ، هذا إن لم يكن غزلـه لوصف عواطف نفسه ، وقد صادف رقية بنت عبد الواحد فى الطـواف حول البيت فشبب بها . يروى الأصفهانى . فيقول(١) : أخبرنى الحرمى قال حدثنا الزبير قال سمعت عبيدة بن أشعب بن جبير قال حدثـنى أبى قال حدثنى فند مولى عائشه بنت سعد بن أبى وقاص قال : حجت رقية بنت عبد الواحد بن أبى سعد العامرية ، فكنت آتيها وأحدثهـا فتستظرف حديثى وتضحك منى ، فطافت ليلة بالبيت ثم أهوت لتستلم الركن الأسود وقبلته ، وقد طفت مع عبيد الله بن قيس الرقيات ، فصادف فراغنا فراغها ولم أشعر بها ، فأهوى ابن قيس يستلم الركـن الأسود ويقبله ، فصادفها قد سبقت اليه ، فنفحته بُرْدُنها(٢) فارتدع وقال لى : من هذه ؟ فقلت : أولا تعرفها ! هذه رقية بنت عبد الواحد ابن أبى سعد ، فعند ذلك قال :

مَنْ عَذِيرى ممن يضنُّ بمبـذو ∴ لٍ لغيرى علىّ عند الطـواف

يريد أنها تقبل الحجر الأسود وتضن عنه بقبلتها . وقال فى ذلك :

حدثونى هل على رجـلٍ ∴ عاشقٍ فى قُبلـةٍ حـرجٌ

(١) الأغانى : ٥/١٧٤٠ ، ١٧٤١ .
(٢) نفحته : أصابته . والردن : الكم .

وبعد فهذا هو عبيد الله بن قيس الرقيات شاعر الحزب الزبـــيرى وشاعر قريش الذى ظل طوال حياته يذود عن القرشيين ، ولم يقــف شعره مع هذا عند حد السياسة ، بل تجاوزها فعكس حياته الـــتى توزعت بين السياسة واللهو . ويكفيه أنه اتصل بأحزاب ثلاثة مختلفــة اتصل بحزب الزبيريين ، وفيهم قال أجود مدحه ، واتصل بالأمويــين وفيهم قال الكثير الجيد ، واتصل بالهاشميين وفيهم أحسن المـــدح وأجاده ، ولم يكن مع ذلك متلونا ولا فاسدا الضمير (١) .

(١) حديث الأربعاء : د . طه حسين ١/٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(شعر الحرب والفروسية والمناسبات والمواقف)

العاطفة عنصر هام من عناصر الأدب ، وركن أساسى من أركانه بل هى عماده ، وهى التى تمنحه صفة الخلود [١] . وهى التى توجه خيال الشاعر وتدفعه إلى انتقاء الألفاظ واختيار صور القول ، ثم هى التى تجعل الشعر صورة صادقة لنفس الشاعر ، وقطعة من حياته وتكشف عن تجربته بوضوح .

وأول مايتميز به الشعر القوى الصادق أنه تعبير عن عاطفة تجيش بنفس الشاعر ، أما الشعر الضعيف فهو الذى لاينبع من عاطفة وهو شعر يأتى كله زائفا تعوزه الحرارة .

وعلى ذلك . فهل كان الشعر الذى قرضه شعراء الحرب والفروسية نابعا من عواطفهم ؟

والحقيقة إن كثيرا مما نظموه لم يكن لينشد إلا استجابة لدوافع وانفعالات جاشت بها نفوسهم ، وعبرت عنها ألسنتهم ، ولذلك جاء صورة صادقة تعكس بوضوح مابنفوسهم ، ويحمل سمات حياتهم وتجاربها فشعر كل حزب يحمل فى طواياه حبا لهذا الحزب والدفاع عنه ضد مناوئيه ، وقصائدهم فى الحرب تصدر عن شعور قوى عميق ، وكل قصيدة منها تحمل حبا قويا للمعاونين وبغضا شديدا للمناوئين

---

(١) النقد الأدبى ، أحمد أمين : ٢٢/١ . النهضة المصريه ط ٤.

وشعراء الخوارج لهم باع طويل فى هذا ، وميدانهم فى هذا الشعر أرحب وأوسع . وهذا هو السبب فى تأجج العاطفة عندهم حتى خرج شعرهم وكأنه قطعة منهم ومن حياتهم ، تتجلى فيه التجربة ، وتتمثل فيه أحداث العصر ، ولقوة العاطفة عند كثير من شعرائهم خرجت من ثم طريقتهم فى الوصف تمتاز بالتصوير الفنى الجميل .

ولا شك أن المناخ العام فى عصر بنى أمية كان مجالا رحبا يتسع لقوة العاطفة وصدقها ، فالعصر عصر أحزاب سياسية حقيقية ، وقد نشط كل حزب فى محاربة الأحزاب الأخرى ومحاولة اجهاضها والنيل منها .

وبالمثل كانت هناك أشعار نحس من قراءتها أن صاحبها إنما نظمها فحسب ليزين بها مناسبة سياسية أو حربية ، أو إن شئت فقل ليشترك بها مع من نظموا على إثر دوافع سياسية أو غيرها ، والشاعر يلقى بهذه القصيدة جامدة تفتقد الروح . ومثل هذه الأشعار إن هى إلا تسجيل للمناسبة ، وليست بعد جزءا من نفس قائلها ، كما أنها ليست صورة صادقة له ، ولا تعبر بالمرة عن تجربة أصيلة ، وإنما انبعثت نتيجة أسباب زائفة مصطنعة .

وقد حدث هذا فى أشعار الأمويين والشيعة والزبيريين — مع تفاوت فيما بينهم — فقد يأتى الشاعر منهم بشعره دون أدنى احساس أو مشاعر ، وهم وإن عبروا عن اضطرابات العصر إلا أنهم لم يكونوا حريصين على اظهار شخصيتهم فى القصيدة ، وترى كثيرا منهم وكأن

موضوع شعره يعيش بعيدا عنه وخارجا عن أنفسهم ٠

ونحن هنا نتعمق نفوس شعراء الأحزاب فنجرد من ثم كثيرا منهم من العاطفة الصادقة بسبب أن ماينظمونه ليس تلبية لمشاعرهم وأحاسيسهم ، ولكنه كان تلبية للحزبية ومجاراة لأوضاع سياسية واجتماعية معينة من غير أن يكون لهذه الأحداث غالبا أثر فى عواطفهم وأحاسيسهم ٠ ولعل الذى دفعنى إلى مثل هذا الموضوع أن كثيرا مما قاله الشعراء كان قد صدر فى مواقف وأحداث بعينها ٠

والذى أراه أن الشعر يجب أن يصدر عن نفس الشاعر وينبع من داخله ، وأن يعبر عن تجربته ويرتبط بها ارتباطا تاما وموضوعيا وليس عيبا بعد على هذا الشعر أن يكون متعلقا بمناسبة أم لا ، وإنما العيب ألا يكون الصدق ملازما لانفعال الشاعر ، وأن يأتى شعره فلا ندرى أهو له أم لغيره ٠ وعلى هذا فإنى أرى أن شعر المناسبات كأى شعر ، فإن انبثق عن عاطفة صادقة جاء شعرا قويا يقبله الذوق ولاضرر عليه أنه فى المناسبة ، فكل الشعر العاطفى الصادق إنما تدعو إليه مناسبة من المناسبات العاطفية من حب وإعجاب وغير ذلك من المواطف التى هى البواعث الحقيقية للشعر ، فالشعر الصادق هو ماكان مرآة لعصره ، وسجلا لبيئته وديوانا لأيامه ، وتعبيرا لأحاسيس قائليه (١) .

وعندى ان شاعرا يخضع للمناسبة ويتخلص منها ببراعة إلى موضوعات

(١) التجديد فى الأدب المصرى ، عبد الوهاب حموده : ١٢٠ .

أخرى تتسع للفن ، لهو أعظم من شاعر يستولى عليه الخيال مهما كان لخياله من تحليق ، فالمناسبة ليست هى التى تخلق الأفكار والخواطر ولكنها تتيح فحسب لها فرصة الظهور والانطلاق ٠

وكثير من شعر الخوارج فى المناسبات والمواقف نرى الشاعر فيه يطغى على المناسبة ويسمو فوقها ، ولا يبدو أمام القارئ أثر للمناسبة وإنما يجد حظ العاطفة والوجدان والتجربة الشعرية أكبر بكثير من حظ المناسبة والظروف الطارئة ، وذلك لأن المناسبة حينذاك قد هزت وجدان الشاعر وأثارت شاعريته ، فبدا وكأن نفسه تتحرك بإلهام منه لا بالهام خارجى عنه ٠ ثم إن المناسبة قد أتت متوافقة مع شعراء الخوارج ودوافعهم النفسية ، وكل ما للمناسبة من دور أنها حركت فحسب التجربة التى بداخل الشاعر ٠

ولا شك أن الخوارج كانوا غلاة فى عقيدتهم ، وكانوا كذلك غلاة فى حربهم ، فكم خربت لهم دور وكم سفكت لهم دماء ، حتى قست قلوبهم فى سفك الدم والتخريب وغلظت أكبادهم فى أحكام الحرب حتى استباحوا قتل الأطفال ، وعللوا ذلك بأنهم يريدون ألا يخلف من بعد مناوئيهم خلف يضيعون المثل الدينية المتمثلة فى الكتاب والسنة ٠

ومن ينظر إلى قول قطرى بن الفجاءة شاعر الخوارج :

أقول لها وقد طارت شعاعا ∴ من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم ∴ على الأجل الذى لك لم تطاعى

فصبرا فى مجال الموت صبرا ∴ فمانيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز ∴ فيطوى عن أخى الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حى ∴ فداعيه لأهل الأرض داعى
ومن لا يغتبط يسأم ويهرم ∴ وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير فى حياة ∴ إذا ما عد من سقط المتاع

يرى زحام الأبطال وحومة النضال ، ويرى حربا مشتعلة بين الشاعر وبين نفسه • وهذه الأبيات مع قلتها تعطينا صورة صحيحة لفروسية الخوارج وكفاحهم ، كما تعطينا مالدى شعرائهم من روعة فى وصف المعارك والوقائع •

أما شعر الحرب عند شعراء المديح والهجاء من الأمويين وعند معظم شعراء الشيعة والزبيريين فلم تجشن به نفس الشاعر • ولم تتحرك به مشاعره وأحاسيسه ، وإنما جاء من مقتضيات المقام ، وأنت إن قرأت هذا الشعر تراه ألفاظا مرصوصة وخيالات باهته وصورا مبتذلة فاترة وتحس أن الشاعر قد تنازل عن أحاسيسه وعواطفه ، واستمد وحيه من غيره حتى جاء هذا الشعر مكذوبا زائفا ، خاليا من الحياة فمسها ومن ثم لم يلبث أن يتلاشى أثره وتخف حدته ، ولا عجب فالشاعر لم يتأثر بالأحداث ولم يعايشها ويتأملها ، وظروف المناسبة لم تدع له فرصة يجيد فيها شعره ، ومن ثم تلاحظ أن بلامح الفن الراقى قد خاصمت القصيدة •

والحق يقتضينى أن أقول أنه كان لبعض شعراء بنى أمية والشيعة

والزبيريين نظم فى المعارك والمعامع وهو بعد ينبع من وجدان الشاعر ومن أحاسيسه ، وصدر تعبيره فيه عن عاطفه جياشه . فأنت ترى تدفق العاطفة وصدقها فى أشعار الشعراء الذين أخلصوا الود لبنى أمية وقد بلغوا جميعهم الغاية وكان أحسن هؤلاء الشعراء قولا وأصدقهم وصفا من شهد حروب الدولة وكان بين المقاتلين .

ومن ينظر القصيدة الرائية التى قالها الشاعر الأموى (كعب الأشقرى الأزدى) يرى قصيدة حربية نادرة ، وهى أكبر قصيدة قالها شاعر فارسى فى عصر بنى أمية ، وقد خصها بوصف المعارك ومشاهد البطولة ومواقف القتال ، ولصدق العاطفة فى القصيدة خرجت أبياتها متوالية لا يند فيها بيت عن جاره . ومع أن هذه القصيدة قد أنشدت فى حفل حاشد على الحجاج ابن يوسف إلا أنها — لما فيها من صدق — نالت إعجاب الحجاج ، فطرب لها وطلب من كعب أن يتوسع فى الوصف ، ليس هذا فحسب بل إنه أرسله إلى عبد الملك بن مروان ليستنشده الرائية ويجيزه .

ومن أبياتها :

ياحفص إنى عدانى عنكم السفر	وقد أرقت فآذى عينى السهر
علقت ياكعب بعد الشيب غانية	والشيب فيه عن الأهواء مزدجر
واشتدت الحرب والبلوى وحل بنا	أمر تشمر فى أمثاله الأزر
تلبسوا لقراع الحرب بزتها	فأصبحوا من وراء الجسر قد عبروا

ساروا بالوية للمجد قد رفعت ∴ وتحتهن ليوث فى الوغى وقر
قتلى هنالك لاعقل ولا قود ∴ منا ومنهم دماء سفكها هدر
باتت كتائبنا تردى مسومة ∴ حول المهلب حتى نوّر القمر
عبوا جنودهم بالسفح إذ نزلوا ∴ (بكازرون) فما عزوا ولا ظفروا
لاقوا كتائب لايخلون ثغرهم ∴ فيهم على من يقاسى حربهم صعر
صفان بالقاع كالطود ين بينهما ∴ كالبرق يلمع حين يشخص البصر
يمشون فى البيض والأبدان إذ وردوا ∴ مشى الزوامل تهدى صفهم زمر
وشيخنا حوله منا ململمة ∴ حى من الأزد فيها نابهم صبر
ندوسهم بمناجيح مجففة ∴ وبيننا ثم من صم القنا كسر
فى (معرك) تحسب القتلى بساحته ∴ أعجاز نخل زفته الريح ينقعر
فى كل يوم تلاقى الأزد مفظعة ∴ يشيب فى ساعة من هولها الشعر
والأزد قوم خيار القوم قد علموا ∴ إذا قرومهم يوم الوغى خطروا
حى بأسيافهم يبغون مجدو ∴ إن المكارم فى المكروه تبتدر
لولا المهلب للجيش الذى وردوا ∴ أنهار كرمان بعد الله ما صدروا

كما أن قوة العاطفة وصدقها قد تجلت فيما قاله الشاعر الشيعى (الكميت ابن زيد الأسدى) . ولم يتقدم فى هذه الناحية شاعر شيعى سواه ، ففى هاشمياته قصيدتان رائعتان من أحسن شعره فى الحروب وأصدقه ، ويتجلى الصدق بوضوح حين يرثى الكميت أئمة الشيعة أو يصف بأسهم وصلابة غاراتهم فى وجه الأمويين .

وليت شعرى ماذا يضر مثل هذا الشعر لو كان فى المناسبات أليس كل ما نخلع عليه من احساسنا ، ونفيض عليه من خيالنا ، ونتخلله بوعينا ، ونبث فيه من هواجسنا وأحلامنا ومخاوفنا هو شعر وموضوع للشعر ، لأنه حياة وموضوع للحياة [(١) " ولئن كان الشعر رسالة للحياة فما الحياة إلا مجموعة مناسبات ، ولاضرر على هؤلاء الشعراء أن يكتبوا فى المناسبات وبخاصة أن أحدا لم ينتدبهم ، وإنما هم الذين صرفوا أنفسهم إلى هذا الشعر وآثروا أن يصوروا العصر وصراعاته وأحداثه اليومية . أما غير هؤلاء الشعراء من الذين كان شعرهم كذلك الذى يكتبه الصحفيون ، فهؤلاء قد رجعوا بالشعر إلى الجمود حين قصروه على المناسبات ، وجعلوه وقفا على الأحداث وبعض ما تتزين به حفلات التأبين ، والشاعر آنذاك قد انصرف إلى تملك شعور الجماعة فهو يرى فى سامعيه قبل أن يمر بخاطره ارضاء نفسه (٢) .

---

(١) مقدمة عابر سبيل للعقاد فى خمسة دواوين : ٣٧٨ .

(٢) انظر ثورة الأدب د . هيكل :- ٥٨، ٦٢، ٦٧ . القاهرة ١٩٤٨ .

" الخصائص العامة "

(لشعر الحرب فى عصر بنى أميـــة)

ألخص هنا الخصائص العامة لشعر الحرب والفروسية فى عصـــر بنى أميـة بما يلـــى :

أولا : **الخصائص الموضوعيـــة :**

اكتسب شعر الحرب والفروسية فى عصر بنى أمية خصائص موضوعية كثيرة ألخصها فيمايلى :

١) تأثر شعر الحرب والفروسية فى جميع صوره بالمنحـــى السياسى فى عصر بنى أمية ، فقد تسلطت السياسة على هذا الشعر ، ودفعت الشعراء إلى أن يكونوا شعرا فى الحرب يفضلون به حزبهم على الأحزاب الأخرى التـــى تعاديه وتناوئه وتذهب غير مذهبه فى السياسة وقضيـــة البيعة ، وقد التزم كل الشعراء بهذا المسلك فلم يحيدوا عنه إلا نادرا ، حتى أنه صار التزاما عند شعراء الخوارج فلم يستخدموا هذا الشعر لأغراض تخالف عقائدهم قـــط حتى ليمكن القول أن لهم قصب السبق والريادة فى هـــذا السبيل ، ولعله من الواضح أن هذا الالتزام الذى أخذ به شعراء الخوارج أنفسهم كان سببا فى تشابه شخصياتهم الشعرية ، وقد جرهم ذلك إلى الاختلاط فى نسبـــة

القصيدة إلى صاحبها ، ونسبة شعر الواحد منهم للآخر .

٢) كذلك تأثر هذا الشعر بالنزعات القبلية والدعوات العصبية التى أحياها الأمويون ، فجاء مصبوغا بتلك النزعات والدعوات ، ومما هو ظاهر بين فى ذلك ماقاله الشعراء الهجاءون فى حروب قيس وتغلب ، فكل شاعر لقبيلة يحاول جاهدا أن يذود عن قبيلته ، ويرمى القبيلة المعادية بسهم من سهام الهجاء ، ويستشيط من ثم شاعر القبيلة المعادية غضبا .. ومن الملاحظ أن كل هذه الصور كان الشعراء فى الأعم الأغلب يتقيدون فيها بأن يردوا على الخصوم بقصائد من نفس الوزن والقافيه التى صاغ فيها الشعراء الخصوم شعرهم .

٣) كان للحياة السياسية والاجتماعية التى سادت عصر بنى أمية أثر كبير فى اثراء شعر الحرب والفروسية ، فحياة هذا العصر تختلف عن الحياة التى عرفها العرب قبل الإسلام فالعصر وما فيه من حروب وفتن وازدحام سياسات كل ذلك كان رافدا يغنى الشعر بالمعانى ، فتكثر من ثم فيه الأخيلة وتقل فيه السذاجة التى شاعت فى العصر الجاهلى وقد ساعدت هذه الآفاق أصحاب القرائح فى خدمة هذا الضرب من الشعر ، فنبغ الشعراء الفحول الذين وصفوا

المعارك وتحرك الجيوش والتحام السيوف واشتجار القنا ووصف رحلة الحرب نفسها منذ تحرك الجيوش مثيرة الغبار مجتازة الأنهار ، صاعدة القمم ، طاوية الهول مقتحمة الحصون . وقد زاد بعضهم وصف ماتسفر عنه المعارك من هزيمة ونصر ، فيصف روعة الانتصار وذل الهزيمة والتقهقر ، ساكبا على كل ذلك تعابير العربية فى أروع قوالبها .

٤) تمثل الروح الدينية فى هذا الشعر تمثلا أغنى شعرهم بالمعانى الإسلامية كالثواب والعقاب والجنة والنار والاستشهاد فى سبيل الله ، ولابد أن يكون هؤلاء الشعراء قد تأثرا بمعاني القرآن الكريم ، كما تأثروا بلغته وأسلوبه ، فكثير من شعرهم كان تضمينا لبعض آيات القرآن الكريم .

٥) ومن يتأمل هذا الشعر يلاحظ أنه اختلف فى معانيه عن شعر العصر الجاهلى ، فكثرة الصراعات والفتن والحروب فى عصر بنى أمية كانت تحمل الشعراء على استنباط المعانى الجديدة فى شعر الحرب والفروسية ، وقد كثرت فى الشعر معانى المبالغة فى الفتك والسطوة والبأس وهذا شئ متوقع ، لسبب طبيعى ، هو أننا أصبحنا بإزاء موقف فى الحياة يختلف عما كان عليه الشأن قديما

قد أصبح للعرب دولة وأصبح لهم جيش منظم ، ووجدت على الساحة أحزاب سياسية حقيقية .. وكان طبيعيا من ثم أن يسير الشعراء فى قصائدهم على أضواء هذه الحياة الجديدة أو فى ظلالها ، وهذا ليس تغييرا كليا ، ولكنه مجاراة للعصر وتطوره وما حدث فيه من انقلاب .

٦) اقتران كثير من شعر الحرب والفروسية بشعر الهجاء والمدح والفخر ، وقد صيغت هذه الفنون بصبغة القصيدة والاتجاهات المذهبية والسياسية ، فاختلفت بذلك عن اللون التقليدى المألوف .

٧) طغى فى هذا الشعر سلطان التاريخ على سلطان الفن ويمكن القول إن كل قصيدة من قصائد هؤلاء الشعراء مربوطة بحادث يمت إلى التاريخ ويتصل به من قريب أو بعيد وقد تحرر شعراء العصر العباسى من هذا ، فهم وإن كان للحوادث التاريخية سلطان عليهم ، إلا أنهم تحرروا من ربقة التقليد التاريخى ، وأصبحوا فى طور الاستقلال الفنى يصلهم بالتاريخ فى بواعثه وغاياته .

٨) اقترن كثير من شعر الحرب والفروسية بشعر الغزل شأنه فى ذلك شأن الشعر الجاهلى ، فقد كان الجاهليون يذكرون المرأة حين ينظمون شعرا فى الحماسة والشجاعة

هذه هى الخصائص الموضوعية العامة لشعر الحرب والفروسية فى العصر الأموى ، والتى ينفرد بها عن غيره ، ويمتاز بها دون سواه من الشعر السابق عليه واللاحق له فى مختلف البقاع .

ثانيا : الخصائص الأسلوبية :

أما فيما يتعلق بالخصائص الأسلوبية فيمكن تلخيصها فيما يلى :

١) الجزالة والقوة ظاهرتان ملازمتان لشعر الحرب والفروسية ، والشعراء بهذا يشبهون شعراء الحماسة فى العصر الجاهلى .. ويمكننا القول أن شعراء بنى أمية - هذا فيما عدا الشعراء الفحول - قد تحرروا من ربقة التقليد ، وقد ساقتهم أصالتهم إلى الانفلات من معظم القوانين التى تتصل بالقصيدة الجاهليه ، ولم يكن هم الشعراء ابراز براعتهم اللغوية ، بل كان كل همهم أن ينقلوا مايشعرون به ، وأن يوصلوا آراءهم إلى جماهيرهم ، ولهذا خرج شعرهم بعيدا عن الغرابة والعجمة ، وجاء صريح اللفظ منكشف المعانى .

٢) فخامة هذا الشعر وقوة جرسه ، وقد فرض الموضوع هذا على الشعراء فرضا ، فخرجت أشعارهم تتناسب وقعقعة السلاح وصراع الأبطال واحتدام المعارك . وفى

سبيل هذا لجأ الشعراء إلى استخدام القوافي الطنانة ولو أن هؤلاء الشعراء قد بذلوا جهدا ، ونظموا قصائد طويلة في الحرب لأعطونا ملاحم كبرى .

٣) شاعت في هذا الشعر ألفاظ حربية جديدة ، وألفاظ وتعابير دينية ، كما ورد ذكر لبعض الآيات القرآنية ، وقد وضحنا ذلك في ذكر خصائص شعر كل حزب على حدة .

٤) ومع أن شعر الحرب والفروسية الخالص قد تمثل في مقطوعات قصيدة ، إلا أن الأمويين كانوا أطول نفسا في قصائدهم من الجاهليين ، وكان للشعراء الفحول دور كبير في إطالة هذه الأنفاس .. ومن يتأمل القصائد الطويلة التي يكون ظاهرها أنها متشعبة الموضوع ، يلاحظ أنها تدور كلها حول معنى الحماسه ، كما يلاحظ أنها — مع تنوع أغراضها — تنبع من معين واحد ، وتدور ضمنا حول غرض واحد .

٥) ولم يخل هذا الشعر من ورود الحكمة ومن الإكثار من التشبيه ، وترديد ألوان البديع ، ومن الإبداع في التصوير والإغراب في الخيال .

(خاتمـــة)

(١) خلاصة الدراسة :

لقد حاولت في الدراسة السابقة أن أصور شعر الحروب والفروسية في عصر بني أمية ، فبدأت بدراسة (العصر الأموي بين الحرب والسياسة) ، وتعقبت ماكان في العصر من فتن وحروب وكيف استطاعت تلك الأحداث المتعاقبة أن تخضع الشعر لسلطانها وأن يكون صورة دقيقة لها في جميع صورها وأشكالها .

وتقدمت بعد ذلك أتحدث عن الأحزاب السياسية ، ومراحل نشاطها السياسي والعقائدي ، ومتابعة حركاتها المختلفة وماأصاب بعضها من انقسام إلى فرق وملل لكل منها نشاطها وعقيدتها الخاصة بها . وقد حرصت في دراسة هذه الأحزاب على ألا تكون مجرد تاريخ للحزب ولمراحل تطوره ، بل أن ترسم لهذه الأحزاب صورة دقيقة من خلال شعر شعرائهم .

أما الفصل الثاني من هذا الباب فقد أدرته على ثلاثة محاور بينت في أولها (شعر الحرب والفروسية قبل العصر الأموي) ، وذكرت ماكان لشعراء العصر الجاهلي من دور في شعر الحرب والفروسية وأنهم كانوا ينشدون الشعر عند المبارزات وشن الغارات ، حتى إذا جاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، نجده يدعو أصحابه إلى حسب

الكفار المعاندين . فكانت من ثم مغازيه تخالف فى غاياتها وأهدافها تلك الحروب التى شغلت الجاهليين .

وعلى شاكلة ماصور شعر الحرب والفروسية حياة القوم فى الجاهلية وفى صدر الإسلام . نجده يعد نفسه للعصر الأموى ولا سيما أن هذا العصر كان عصر أحزاب سياسية حقيقية . وقد اصطدمت تلك الأحزاب بعضها ببعض اصطداما ماعرف التاريخ العربى شبيله لا فى العصر الجاهلى ولا فى العصر العباسى . وعلى نحو مانهضت هذه الحياة الجديدة بالشعر وطورته نجدها تنهض بشعر الحرب والفروسية .

وذهبت بعد بيان ذلك لأطبق فى الباب الثانى ماوصلت إليه من أفكار وآراء عامة . فاخترت الأحزاب الأربعة المتصارعة (الأمويون والخوارج . والشيعة والزبيريون) . الذين شغل صراعهم الناس فى عصرهم والعصور التالية . ودرست شعرهم فى الحرب والفروسية دراسة فنية حينا . ومنوطة بالتاريخ حينا آخر . وقد لاحظت أن موضوعات هذا الشعر قد توزعتها عندهم نواحى مختلفة . فهو عند بنى أمية يصدر عن شعراء المديح والهجاء . وعن شعراء العصبيات القبلية . كما وضحت أن هذا الفن كان منتوجا طبيعيا للحروب الداخلية التى كانت بين حكام بنى أمية وبين الأحزاب الأخرى المناوئة كما كان منتوجا طبيعيا أيضا للحروب الخارجية التى تمثلت فى الفتوحات الخارجية .

وحاولت فى ختام هذا الباب أن أطبق ماوصلت إليه من آراء على طائفة من الشعراء ، فاخترت شاعرين هما (النابغة الشيبانى) و (القطامى) ، وتحدثت عن تلوينهم فى شعر الحرب والفروسية وكيف استمدوه من العصبيات القبلية .

أما الباب الثالث فقد درست فيه شعر الحرب والفروسية فى أدب الأحزاب المعارضة لبنى أمية ، وبدأت هذا الباب بالحديث عن شعر الخوارج ، وبينت فى هذه الدراسة أن أكثر شعراء الخوارج كانوا من المحاربين والفرسان الذين يخوضون المعارك بسيوفهم قبل ألسنتهم ، كما وضحت أن الشعر عندهم — بشكل عام — كان إما تسجيلا لأعمال حربية أو رثاء للقتلى ، أو للتهديد والوعيد ...... وإذا أضفنا إلى هذه الموضوعات ماجاء لهم من شعر تأملى فى الموت والحياة ، وفى الشراية والخروج ، لما بقى شئ من شعرهم إلا النزر اليسير الذى يصعب وصفه بأنه من موضوع معين من الموضوعات الشعرية .

ولعل أبرز مايميز شعراء الخوارج عن غيرهم من معاصريهم وسابقيهم وفرة شعرهم الحربى والفروسى ، ثم إن هذا الشعر لم يكن يلبس عندهم ثياب الفخر أو المدح ، وإنما كان ينشأ عن حاجة تتطلبه فهم يعبرون به عما يعتمل فى نفوسهم ومايدور فى خلدهم ، ومن ثم فلم يحرصوا على روايته أو اثباته ، الأمر الذى أدى إلى ضياع معظم مالهم من شعر ، ومابقى من شعرهم لايتناسب قط وذيوع شهرتهم فهم دعاة حرب وطلاب موت .. وعلى كل حال فما توفر بين أيدينا

من شعرهم يشير بوضوح إلى أنهم كانوا بمنزلة عالية فى هذا الشعر بين الأحزاب السياسية الأخرى ، وختمت الدراسة عن الخوارج بالحديث عن شاعر الخوارج الصفرية (عمران بن حطان) ، واخترته بالذات لتقرير مادار حوله من كلام كثير حول قعوده عن القتال ، وضعفه من ثم عن تصوير الحرب والفروسية ، وبينت أن الأرجح أن قعوده إنما جاء فى سن متأخرة ، لا يستطيع فيها مواصلة الحروب والقتال .

أما الفصلان الأخيران (الثانى ، والثالث) فقد تحدثت فيهما عن شعر الحرب والفروسية عند كل من الشيعة والزبيريين ، وبينت أن كلا من الحزبين قد عزز مذهبه ومطلبه بتلك الأشعار الحربية التى وصف فيها شعراؤهم معاركهم وحروبهم مع مناوئيهم ومخالفيهم ، وبينت أن هذا الشعر عندهم كان قليلا ، وأنه يقل فى فروسيته عن شعر الخوارج .

وانحدرت إلى شاعر الشيعة (الكميت بن زيد الأسدى) وشاعر الزبيريين (عبيد الله بن قيس الرقيات) فبينت كيف كان شعر كل منهما صدى لحروب حزبه مع الأمويين ، كما كان طمأنينة لنفوسهم الحزينة ، وتسكينا لجراحاتهم العميقة .

وذهبت بعد بيان ذلك لأجيب عن سؤال كان دائما يفرض نفسه على كثير من الدارسين كما فرض نفسه على وأنا أكتب هذه الدراسة وهو : ألم يكن هذا الشعر يتعلق بالمواقف والمناسبات ؟ الأمر الذى يتضمن الطعن فيه بأنه شعر صحفى وليس شعرا قبل استجابة

لدوافع وانفعالات جاشت بها نفوس ناظميه . وقد بينت أن المناخ العام في العصر الأموى كان مجالا رحبا يتسع لقوة العاطفة وصدقها ، وليس من الضرر بعدُ أن يتصل الشعر بالأحداث والصراعات السياسية ، وإنما العيب أن يكون الشعر غير ملازم لانفعال الشاعر وأن يأتى شعره فلا ندرى أهو له أم لغيره .

وفسرت القول بأننا إذا استبعدنا بعض الأشعار التى قيلت على إثر دوافع سياسية طارئة ، وجدنا كل شعر الحرب والفروسية — وبخاصة عند شعراء الخوارج — لا يبدو فيه أثرًا اطلاقا للمناسبة فالمناسبة آنذاك جاءت متوافقة مع دوافع الشاعر ، وحظ الوجدان والعاطفة كان أقوى بكثير من حظ المناسبة .. وكل ماكان للمناسبة أنها آذنت للشاعر فحسب أن يخرج بتجربته الشعرية ، تلك التجربة التى لايكون عيبا فيها أن تكون نضالا مع الحزب ومصارعة معه ، وتسجيلا لبطولاته وأمجاده .

وختمت هذا الملحق ببيان الخصائص العامة التى يمكن أن يتصف بها شعر الحرب والفروسية فى عصر بنى أمية ، وذكرت منها مايتعلق بالموضوعات ومايتعلق بالأسلوب ، وذكرت أن هذه الناحية قد اشتركت فيها الأحزاب جميعها .

(٢) تعليــق وتعقيــب :

تلك هى أهم المناحى التى وقفنا عندها فى الدراسة ، وبقى

منحى آخر مهم نريد أن نوضحه ونستجليه ، وهو هل ظهرت الملحمة الشعرية في عصر بني أمية ؟ ، إذ أن شعر الملحمة يقص أخبار وأنباء المعارك والبطولة والأبطال ، وهي — أي الملحمة — بهذا تكون موضوعاتها ومعانيها وأفكارها مستقاة من الحرب في أسلوب أدبي يبقى متداولا على مر الزمان ، لأنه يمثل تاريخ أمة من الأمم بما اعتورها من حوادث كبرى وخطوب جسام ، ضحت فيها بأجيال من أجيالها زادوا عنها وعن أموالها وديارها .

وإذا كان من ضروريات العيش أن يقتتل الناس ، فإن من لوازم ذلك أن يتصدى الشعراء ليكونوا بمثابة صدى يصور تلك الخطوب ويجعلونها موضوعا للملاحم يسجلون فيها أطوار الحرب مثلا ، ويصفون فيها صولات أبطالهم وتقهقر أعاديهم ، وقد يزجون تلك الأشعار بالحكمة والموعظة ، كما أنهم قد يمزجون أهوال الحرب ومعامعها بأفانين الحب وخفقات القلوب والوجدان .

ومن أشهر الملاحم :

(١) (الإلياذة) وهي لشاعر اليونان "هوميروس" وموضوعها هو الحرب التي نشبت بين اليونان ومملكة "طروادة" في آسيا الصغرى فيما بين القرنين العاشر والثاني عشر ق . م .

(٢) (الأوديسا) وهي لهوميروس أيضا ، وهي ملحمته الثانية التي أدارها أيضا على حرب طروادة بعد انتهائها بعشر سنوات

وما نتج عن هذه الحرب من تناقس الأمراء .

(٣) (الإنيادة) وهى لشاعر الرومان (فرجيل) . وهى ملحمة تشيد بالوطنية الرومانية . وهى وإن كانت مصبوغة بصبغة دينية إلا أنه تأثر فيها إلى حد بعيد بالملاحم اليونانية . وهى و(الكوميديا الالهية) لدانته تعدان أساسا لتطور الملحمة . وتطبعها بالطابع الدينى .

وهذه من أشهر الملاحم لأنها — إلى جانب وصفها فى مئات الأبيات من الشعر لأفدح الخطوب وأروع المعارك والأحداث — تضم معارف جمة وفلسفة أمة فى شئون متعددة فى الفلك وفى فن الحرب وفى شئون السياسة وإدارة الحكومة .. وهذه الملاحم وإن اختلطت بالأساطير والخرافات إلا أنها لها أصول وحقائق تاريخية .

ولما كان حب الحرب غريزة فى الأمم الغربية . نجدهم ينهجون النهج الذى نهجه الإغريق . فينظمون ملاحم كبرى يتغنون فيها بفروسية محاربيهم . ثم لم تلبث هذه الملاحم أن [illegible] لكثير من المسرحيات التى ظهرت تمثل البطولة والعظمة الحربية .

على أننا إذا تجاوزنا الغربيين إلى الشرقيين . وجدناهم يحتفون بالملاحم فكان للهنود مثلا ملحمة (المهابهاراته) للشاعر الهندى (فياسه) وهى تقع فى آلاف الأبيات . وموضوعها هو الحرب بين شعوب الهند . وقد ترجمت إلى الفارسية وترجمها ود...م

البستانى إلى العربية ، وكان للفرس كذلك ملحمة (الشاهنامـــة) للشاعر الفارسى (الفردوس) ، وهى تحكى تاريخ الأكاسرة وبطـولات الفارسيين فى الحرب ، وهى تقع فى آلاف الأبيات ، وقد عرفهـــا العرب على أنها تمثل الكتاب المقدس للفرس ، وقد ترجمت إلى العربية .

والملحمة قصة شعرية بطوليه تحكى أفعالا عجيبة وتصور حوادث خارقة للعادة ، وعنصر الحكاية هو الغالب عليها وهذا هو مايميزهـا عن المسرحية والقصة ، وهو نفسه مايخرج الشعر القصصى عن أن يسمى ملحمـــة .

وقد ازدهرت الملحمة فى الأمم التى تتميز بالفطرية ، حيـث يشيع الخيال وتكثر الأساطير والخوارق ، ويخلط الناس بين الحقيقـة والخيال ويزاوجون بين الحكاية والتاريخ ، وهذا شئ طبيعى عندهم فعقيدتهم السهلة جعلتهم يجسّمون الطبيعة فى صور ألوهية مقدسـة ويعددون الآلهة تبعا لتعدد القوى الطبيعية المختلفة ، ولهــذا انتهى عهد الملاحم بانتهاء عهود الفطرة للأمم ، وإن بقى تأثيرهـا فيما تستمده المسرحيات والقصص من أساطير .

ويبدو لى أن شعراء العصر الجاهلى — إذا لم نفرق بـين الملحمة وبين الشعر القصصى — لديهم ملاحم لاتنتهى ، فلديهـم شعر طويل فى وصف المعارك وفى سرد أخبارها ، وذكر ملاحمهـا أما إذا أخرجنا الشعر القصصى من نطاق الملحمة وجعلنا هذا شيئـا وذاك شيئا آخر ، فإن الشعراء الجاهليين — وخاصة أنهم لم يهتدوا

إلى زيادة بطولاتهم — لم يهدوا إلى نظم ملاحم تضم تاريخ الجاهلية وتخلد حروبها ومنازعاتها ، على حين نجد تاريخهم مملوءا بالأحداث والمعامع والحروب .

وإذا كان ماقيل (من أن ملحمة الإلياذة والأوديسا) ليستا من وضع شاعر بعينه ، كما أنهما ليستا من وضع هوميروس ، وإنما نظمهما شعراء شعبيون عديدون على فترات وأجزاء ، وكل ماكان لهوميروس أنه جمع كل ذلك ورتبه وأضاف إليه إضافات حتى نسبت كل من الملحمتين له .. إذا كان هذا كذلك فإن في معظم مانظم الشعراء الجاهليون لما يعد ملحمة ، لما كان بين الشعراء بعامة من تماثل وعلى هذا الأساس يجب أن تعد قصائد المعلقات ملحمة عظيمة ، لأنها روت تاريخ الجاهليين ، وصورت معاركهم ، وسجلت بدقة كل ماأسفرت عنه تلك الاحتكاكات السياسية بين القبائل والعشائر .

... وعلى هذا الأساس فإننا نعد تلك القصائد التي قيلت في الحرب والفروسية في عصر بني أمية ملحمة صغرى ، ففيها وصف لسير الجيوش واعدادها ، ووصف للالتحام ومايعقبه من اقبال وادبار وكر وفر ومايتلو ذلك كله من فخر بالفوز ، واعتذار عن الهزيمة .

ولو أننا تعمقنا النظر لوجدنا بين يدي هذا العصر ملحمة عظيمة تتمثل في قصائد شعراء الخوارج لما كان بين شعرائهم من تقارب وتشابه في الخواطر ، ثم إن صورهم الفنية تبدو متماثلة كل التماثل . فعند قطري بن الفجاءة معان جاء بمثلها عيسى بن فاتك

وإنّ فى وحدة ظروفهم ومعيشتهم لمما طبعهم جميعا بطابع واحـــــد فقد خاضوا جميعا الحروب وامتشقوا السيوف ، وهم أنفسهم كانـــــوا فوارس فى الميدان ، وكثيرا ماقالوا الأرجاز فى ميدان الحرب ، على أن البصير بنقد الشعر يجد شبها بينهم حتى فى المنزع .. الأمـــر الذى يساعد على الأخذ بهذه النظريـــــة .



(أهم المراجع والمصادر)

(١) القرآن الكريم .

(٢) الأدب الأموى د . ابراهيم أبوالخشب . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٣) أدب الخوارج د . سهير القلماوى . لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٤) أدب السياسة فى العصر الأموى د . أحمد الحوفى دار نهضة مصر الطبعة الخامسة .

(٥) أعيان الشيعة للعاملى :

الجزء الأول مطبعة ابن زيدون دمشق ١٣٥٤ هـ .

(٦) البداية والنهاية لابن كثير :

الجزء الثامن القاهرة ١٣٤٨ هـ .

(٧) البيان والتبيين للجاحظ :

الجزء الأول والجزء الثانى نشر مكتبة الخانجى بالقاهرة .

(٨) تاريخ آداب اللغة العربية . جورجى زيدان

الجزء الأول الهلال ١٩٣٦ م .

(٩) تاريخ الأدب العربى د . شوقى ضيف :

العصر الإسلامى . دار المعارف الطبعة الثامنة .

(١٠) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى :

الجزء الرابع . مطبعة الاستقامة القاهرة ١٩٣٩ م .

الجزء الخامس . المطبعة الحسينية بالقاهرة . ودار المعارف
الطبعة الرابعة .
الجزء السادس . دار المعارف الطبعة السادسة .
الجزء السابع . تحقيق أبو الفضل ، دار المعارف
الطبعة الثانية .

(١١) تاريخ الدولة العربية د . عبد العزيز سالم . مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر .

(١٢) تاريخ الشعر السياسى أحمد الشايب . النهضة المصرية سنة ١٩٦٦م .

(١٣) تاريخ الشعر العربى د . الكفراوى . دار نهضة مصر .

(١٤) تاريخ اليعقوبى . طبعة بيروت ١٩٦٠م .

(١٥) التجديد فى الأدب المصرى الحديث ، عبد الوهاب حمودة ، دار الفكر العربى — الطبعة الأولى .

(١٦) ثورة الأدب د . هيكل . القاهرة ١٩٤٨ .

(١٧) حديث الأربعاء د . طه حسين :

الجزء الأول . دار المعارف ط ١٢ .

(١٨) الخطابة فى صدر الإسلام د . محمد طاهر درويش :

الجزء الثانى . دار المعارف ١٩٦٧م .

(١٩) خمسة دواوين للعقاد . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م .

(٢٠) الخوارج فى العصر الأموى ، نشأتهم ، تاريخهم ، عقائدهم أدبهم د . نايف محمود معروف ، دار الطليعة بيروت الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م .

(٢١) الدولة الأموية فى الشرق بين عوامل البناء ومعاول الفناء
د ٠ الطيب النجار ، الطبعة الثالثة ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧م ٠

(٢٢) ديوان عبد الله بن قيس الرقيات بيروت ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م ٠

(٢٣) ديوان عنترة ٠ طبعة بيروت ٠

(٢٤) ديوان الفرزدق :

الجزء الأول والثانى ٠ دار صادر بيروت ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م

(٢٥) ديوان نابغة بنى شيبان ٠ دار الكتب المصرية ١٩٣٢م ٠

(٢٦) شرح ديوان الأخطل ٠ دار الثقافة بيروت ٠

(٢٧) شرح ديوان جرير ٠ دار الكتاب اللبنانى الطبعة الأولى
سنة ١٩٨٢م ٠

(٢٨) شعر البصرة فى العصر الأموى د ٠ عون الشريف قاسم
دار الثقافة بيروت ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢م ٠

(٢٩) شعر الحرب فى أدب العرب فى العصرين الأموى والعباسى
إلى عهد سيف الدولة د ٠ زكى المحاسنى ٠ دار المعارف
بمصر الطبعة الثانية ٠

(٣٠) شعر الخوارج د ٠ احسان عباس ٠ دار الثقافة بيروت
الطبعة الثالثة ١٩٧٤م ٠

(٣١) شعر الكميت بن زيد الأسدى ٠ جمع وتقديم د ٠ داود سلوم :

الجزء الأول ٠ مطبعة النعمان بغداد ١٩٦٩م ٠

(٣٢) الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور د ٠ شوقى ضيف
دار المعارف ١٩٧٧م ٠

(٣٣) ضحى الإسلام ، أحمد أمين :

الجزء الثانى ٠ نهضة مصر الطبعة الثامنة ١٩٧٤م ٠

(٣٤) العمدة لابن رشيق :
الجزء الأول . دار الجيل بيروت .
(٣٥) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني :
الأجزاء ٥، ٦، ٧، ٨، ١٤، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٨ . كتاب الشعب ، الطبعة الثانية ، عن طبعة دار الكتب المصرية .
(٣٦) الفتوة عند العرب ، عمر الدسوقي . نهضة مصر ، الطبعة الرابعة .
(٣٧) فتوح البلدان للبلاذري . ط الشركة العربية بمصر ، الطبعة الأولى ١٩٠١ م .
(٣٨) فجر الإسلام ، أحمد أمين . النهضة المصرية ، الطبعة ١٢، ١٩٧٨ م .
(٣٩) الفرق الإسلامية في الشعر الأموي د . النعمان القاضي دار المعارف ١٩٧٠م .
(٤٠) قيم جديدة للأدب العربي د . بنت الشاطئ ط ١٩٦١م .
(٤١) الكامل في التاريخ لابن الأثير :
الجزء الرابع . دار صادر بيروت ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .
(٤٢) مروج الذهب للمسعودي :
الجزء الثاني المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦ هـ .
(٤٣) مقاتل الطالبيين للأصبهاني . ط الحلبي .
(٤٤) المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول د . عزيز فهمي . تحقيق محمد قنديل البقلي . دار المعارف .

(٤٥) مقدمة القصيدة العربية فى العصر الأموى د ٠ حسين عطوان دار المعارف ١٩٧٤م ٠

(٤٦) الملل والنحل للشهرستانى ٠ مطبعة مخيمر ١٩٥٦م ٠

(٤٧) النقـد الأدبى ، أحمد أمـين :

الجزء الأول ، النهضة المصرية ، الطبعة الرابعـة ٠

(٤٨) هاشميات الكميت ٠ ط شركة التمدن ١٩٠٢م ٠

****

(فهرس الموضوعات)

الصفحة

* مع تحيات مكتب رحاب *

* فتحي عبد الكريـــم *